Athar Classics كلاسيكيات أثر

ليوبولد فون ساشر مازوخ

فينوس في الفراء

ترجمة أسماء القناص

ڤينوس في الفراء

ڤينوس في الفراء

رواية

ليوبولد فون ساشر مازوخ

ترجمة

أسماء القنّاص

إلى:

ليوبولد فون ساشر مازوخ

المترجمة

"وضرب الرب القدير سبحانه فأسلمه إلى يدي امرأة"

سفر يهوديت.

كنتُ بصحبة مبهجة، فالسيدة التي تجلس قبالتي بجوار المدفأة الهائلة لم تكن إلا ڤينوس، لم تكن امرأة عادية أو لعوبًا تشنّ حربًا ضد الجنس الذكوري؛ ولكن الحقيقة أنها هي ڤينوس، إلهة الحب الشرعية.

أشعلَت النار واستكانت على المقعد المريح. انعكس وهج النار على وجهها الباهت، عينيها البيضاوين، وعلى قدميها عندما تسعى لتدفئتهما من وقت لآخر. كان وجهها جميلًا رغم عينيها المتحجرة والميتة؛ غير أن هذا هو الجزء الوحيد الذي كان بإمكاني رؤيته؛ فالمخلوقة المهيبة لفّت جسدها الرخامي بفرو جليل، لقد حشرت جسدها تحته كقطة مرتجفة.

"أنا لا أفهم ذلك"، وتابعت: "فالجو لم يعد باردًا، في الواقع إن الأسبوعين المنصرمين كان جوهما ربيعيًا، لابد أنها أعصابك"

"احتفظ بربيعك" أجابت بنبرة صوت متحجرة وخافتة، ثم عطست بألوهية مرتين: "أنا لا أحتمله هنا، وبدأت أفهم لماذا..."

"ماذا عزيزتي؟"

"لقد بدأت أصدق ما لا يصدق وأفهم العصي على الولوج، فجأة بدأت أفهم الفضيلة الجرمانية للمرأة، والفلسفة الجرمانية، وأنا لم أعد مندهشة من كونكم أيها الشماليون عاجزين عن الحب، ولا تعرفون ما هو الحب"

"استمحيك عذرًا سيدتي"

تصاعد الدم، وأردفت بغضب: "لم أمنحك سببا للتحدث بهذه الطريقة"

"أوه لا، هذا صحيح أنت لم تمنحيني"

ثم عطست الربانية للمرة الثالثة، وهزت كتفيها بكياسة لا تضاهى: "لهذا السبب دائمًا ودودة معك، وآتي لرؤيتك بين حين وآخر، مع أني أصاب بالبرد في كل مرة على الرغم من فراشي.. هل تذكر المرة الأولى التي التقينا فيها؟"

قلت: "كيف لي أن أنسى؟ كنت تمتلكين شعرًا كثيفًا أجعد بلون بني، وكان لديك عينان بنيتان، وشفة قرمزية، لكنني ميزتك على الفور من ملامح وجهك وشحوبه الرخامي، وكنتِ دائمًا ترتدين معطفًا مخمليًا مزينًا بفرو السنجاب."

"نعم، لقد كنت مغرمًا فعلاً بذلك المعطف، منصاعًا بشكل مروع، أي عاشق أنت ينتبه لأدق التفاصيل أنت!"

"أنت علمتِني معنى الحب، عبادتك جعلتني أنسى ألفيّتين من التاريخ، لقد تجاوز إخلاصي لك كل الحدود.. أوه.. أما عن إخلاصك فأنت لم تكوني بذلك القدر فعليا"

"أنت رجل ناكر للجميل"

"انا لا أريد تقريعك، أنت بلا شك امرأة ربانية، لكنك تظلين امرأة مثل معظم بنات جنسك، قاسيات في مسألة الحب"

"ما تسميه قسوة" ردت إلهة الحب بفارغ الصبر" هو جوهر الحب لشهواني وسجيته، هذه هي طبيعة المرأة الحقيقة حيثما أحبت، وحينها تُفتتن كل شيء يحقق إرضاءها"

"هل من الممكن أن يكون هناك شيء أكثر قسوة من خيانة المحبوب؟"

"وا أسفاه" أجابت "إننا مخلصات طالما أحببنا، ولكنك تطلب الإخلاص

من امرأة لا تحبك، إنك تطلب أن تمنحك روحها بلا منّة.. من تضحي إذن.
المرأة أم الرجل؟ أنتم أيها الشماليون تأخذون الحب بجدية.. أنت تتكلم عن
الواجبات بينما المسألة هي متعة بحتة"

"هذا هو سبب كون عواطفنا شريفةً وفاضلة، وعلاقتنا متينة"

قاطعتني السيدة: " أنت لا تهدأ، أنت تحتضن توقًا سريًّا للتحية الوثنية المحضة، أنت أيها الرجل المعاصر، بمنطقك الطفولي، لا تستطيع أن تبدأ بتقدير الحب كنعيم خالص وطمأنينة ربانية؛ بالإضافة إلى أن هذا النوع من الحب كارثة بالنسبة للرجال أمثالك، ومع الوقت كلما حاولت أن تكون طبيعيًا ستصبح أكثر سوقيةً وابتذالاً. ألا تفهم..!! إنه لا يتناغم مع طبيعتك؛ لقد خلقت شياطينًا من إلهة الإغريق المبتسمة، وحولتَني إلى مخلوق شرير يمكنك فقط طرده ولعنه، أو أن تضحي بنفسك في لحظة جنون باخوسي عند مذبحي، وإذا أتيح لأحدكم شجاعة تقبيل فمي القرمزي فسوف يحج حافي القدمين في جلباب تكفيري إلى روما، ويصلي حتى تعود هذه العيدان الملعونة والمتيبسة خضراء مرة أخرى، وتنمو الأزهار تحت أقدامي، والبنفسج، ونباتات الآس التي تتشكل كل ساعة، ولكن عطرها لا يتفق معك.. ابق بين الضباب الشمالي والبخور المسيحي واترك عالمنا الوثني يسترح تحت الحمم البركانية والأنقاض، لا تنبش قبورنا، إن بومبي لم يتم بناؤها من أجلك، ولا قرانا ولا حتى حماماتنا ومعابدنا.. أنت لا تحتاج إلى إلهة تتجمد موتًا في عالمك"

سعلت الجميلة الرخامية ورتبت السمور الأسود حول كتفيها.

قلت: "ممتن كثيرًا للدرس الكلاسيكي، ولكن، في عالمك السلمي والمشمس ـ كما في عالمنا الضبابي ـ لا يمكنك أن تنكري أن الرجل والمرأة أعداء ألداء، وفي وسع الحب أن يوحدهما فترةً قصيرة على عقل واحد،

وقلب واحد، وإرادة واحدة قبل أن يتمزقا، وأنت تعرفين هذا أكثر مني، إن كل من يفشل منهما في الاخضاع سيشعر قريبًا أنه تحت قدم الآخر"

"تحت قدم المرأة طبعًا" صرخت فينوس بسخرية "وأنت تعرف هذا أكثر مني"

"بالتأكيد، لهذا السبب ليس لدي أي أوهام"

"هل تعني أنك الآن عبدي بدون أية أوهام، وبناء على هذا يجب أن أسحقك تحت قدمي بلا رحمة؟!"

"مدام!!"

"ألا تعرفني حتى الآن؟ نعم أنا قاسية مُنذ أصبحت هذه الكلمة مصدرًا لسعادتك، ولكن ألا يحق لي أن أكون هكذا؟ إن الرجل هو الذي يرغب والمرأة هي المرغوبة، هذه هي ميزة المرأة بلا شك، ومن خلال ولعه سلمت الطبيعة الرجل للمرأة ووضعته تحت رحمتها، والمرأة التي لا تعرف كيف تجعله تابعًا لها، عبدًا، دمية، ولا تعرف حتى كيف تخونه بابتسامة هي امرأة غير حكيمة."

قاطعتها بغضب "عزيزتي إن مبادئك...."

"مبادئي تستند إلى تجربة آلاف السنين" قالتها بسخرية بينما حركت أصابعها البيضاء في الفراء الأسود "كلما أذعنت المرأة كلما تحرر الرجل من وقاره وأصبح مهيمنًا؛ ولكن كلما عاملته بوحشية، خانته، تلاعبت به باستهتار وأظهرت تجاهه شفقة أقل، كلما ازدادت رغبته واندفع لحبها وعبادتها، لطالما كان الحال هكذا مُنذ زمن هيلين ودليلة وصولًا إلى كاترين الثانية ولولا مونتيز"

قلت لها: "لا يمكنني أن أنكر ذلك، لا شيء يجذب الرجل أكثر من صورة

امرأة جميلة، متقدة وقاسية.. والمرأة التي تُغير كل شيء بلا تورع ليتناسب مع أهوائها هي امرأة مستبدة.

هتفت الإلهية: "وترتدي الفرو"

"ما الذي جعلك تظنين هذا؟"

"أعرف نوعك المفضل"

قاطعتُها وقلت: "هل تعلمين، إنك أصبحتِ أكثر تغنجًا منذ لقائنا الأخير"

" ماذا تعني بذلك؟"

" أعني إنني لا أستطيع التفكير في شيء أكثر ترفًا وإغراء على جلدك الأبيض من هذه الفروة السوداء"

ضحكت الإلهية ثم هتفت: "استيقظ!! أنت تحلم". أمسكت ذراعي بيدها الرخامية وكررت بخشونة ونبرةٍ خافتة: "استيقظ!"

فتحت عينيَّ بصعوبة، بإمكاني رؤية اليد التي هزتني، وفجأة كان هناك البني الضارب إلى الصفرة، والصوت كان أجش كصوت سكير، إنه صوت عبدي القوقازي فارع الطول. وتابع الخادم:

"استيقظ، هذا مشين حقًا"

" ما هو المشين؟"

"أن تغفو في ملابسك مع كتاب في يدك".

أخمدَ الشموع التي احترقت كليًا، والتقط الكتاب الذي سقط من يدي، ثم تغرس في عنوان الصفحة وقال: "هيغل، بالإضافة إلى أنه حان الوقت

لنرحل، فالسيد سيفرين يتوقع مجيئنا لشرب الشاي"

***

"حلم غريب حقًا" قالها لي وأسند ذراعيه على ركبتيه، استراح بذقنه على يده ذات العروق، ثم سقط في تفكير عميق. كنت أعلم أنه لن يتحرك مدة طويلة، حتى إنه لا يكاد يتنفس، وهذا ما حدث فعلًا، ولكنني لم أجد شيئًا غير عادي أو جديرًا بالملاحظة في سلوكه، لقد جمعتنا صداقة وثيقة مُنذ ثلاث سنوات تقريبًا؛ لذلك أجدني معتادًا على غرابة أطواره. لقد كان بلا شك شاذًا، لكنه بالرغم من شذوذه لم يعتبره جيرانه والمقاطعة بأكملها مجنونًا خطيرًا. لم أجد شخصيته مثيرة للاهتمام فحسب؛ بل - وهذا سبب كون الكثيرين يعتبرونني مجنونًا بعض الشيء - أجده حساسًا إلى حد ما، وتبدو رصانته التي يُظهرها غريبة وغير متسقة مع شخصية أحد النبلاء الجاليكيين وملاك الأراضي؛ نظرًا لعمره - الذي كان أكثر من ثلاثين عامًا- إضافة إلى الجدية والحذلقة. عاش وفقًا لفلسفة متزمتة ونظام عملي أشبه بالساعة، بل كل دقيقة من حياته تُطيع ما يمليه عليها مقياس الحرارة، البارومتر، الهيدروميتر، أبقراط، هوفلاند، أفلاطون، كانط، نيغ، اللورد شسترفيلد. وفي بعض الأحيان كانت تتأتى له هجمات عنيفة من العاطفة المفاجئة تعطي انطباعًا أنه على وشك الانفجار وتحطيم رأسه في الجدار؛ وفي مثل هذه اللحظات يفضّل الجميع الابتعاد عن طريقه، وفي لحظات صمته يستطيع المرء سماع غناء النار الخافت في المدخنة، أزيز السماور الجليل، الكرسي الهزاز القديم الذي جلستُ عليه ودخنت سيجارًا، وأخيرًا صرير الكريكيت في الجدران القديمة. سمحت لعيني أن تنسل على مجموعة الأدوات الغريبة؛ الهياكل العظمية للحيوانات، الطيور المحنطة، "الكرات الأرضية، قوالب

الجص التي كانت تتكدس في حجرته، وفجأة وقعت عيني على صورة كثيرًا ما رأيتها في عدة مناسبات، لكنها اليوم، تحت الوهج الأحمر المنعكس للنار، تركت في رأسي انطباعًا غريبًا، كانت لوحة زيتية كبيرة، صنعت بألوان صارخة على طراز المدرسة الفلمنكية، وكانت فكرة اللوحة غير عادية مطلقًا، امرأة جميلة عارية تتكئ على ذراعها الأيسر، ابتسامة مشرقة تعلو وجهها، وشعرها الكثيف مربوط بعقدة إغريقية، تلتحف الفرو الأسود الذي يعطي مشهدًا متضاربًا مع المسحوق الأبيض الذي يغطي وجهها، يدها اليمنى تمسك سوطًا، بينما أقدامها العارية تستقر بلا مبالاة على رجل يستلقي على الأرض مثل عبد، مثل كلب، تعلو تقاسيمه الحادة الواضحة مسحة من الحزن والكآبة ويتقد فيها الإخلاص، إنه ينظر إليها بنشوة، بحرقة عيني شهيد. إن هذا الرجل الذي اتخذته موطئًا لأقدامها، يشبه سيڤرين، ولكنه بلا لحية، ويبدو أصغر بعشر سنوات.

"ڤينوس في الفراء" صرختُ مشيرًا إلى اللوحة، وتابعت: "هكذا رأيتها في أحلامي"

" وأنا أيضًا، لكني فقط رأيت حلمي على أرض الواقع وبأعين مفتوحة"

" ماذا تعني؟!"

"أوه.. إنها قصة مملة"

"يبدو أن اللوحة كانت مصدر حلمي هذا" وواصلت: " ولكن قل لي، ما القصة خلف هذا، وكيف لعبت دورًا مهما في حياتك؟ لا أطيق انتظارًا حتى أسمع التفاصيل منك"

أجاب صديقي الغريب دون أن يعير اهتمامًا لسؤالي: "انظر إلى اللوحة المواجهة لك، لقد كانت نسخة طبق الأصل من عمل تيتيان الشهير: ڤينوس

مع المرآة"

"لكن ما المغزى من ذلك؟"

نهض سيڤرين وأشار بإصبعه إلى الفرو الذي كساه تيتيان لإلهة الحب، وقال بابتسامة رقيقة : "إنها أيضًا ڤينوس في الفراء، لا أعتقد أن هذا الڤينيسي لديه أي دوافع خفية، لقد رسم ببساطة بورتريه لبعض الأرستقراطيات الرومانيات، وكان لبقا بما يكفي للسماح لكيوبيد أن يحمل المرآة التي كانت تتفحص من خلالها فتنتها الجليلة بكل استحسان فاتر، يبدو أن مهمته أصبحت مرهقة للغاية، فقد رسم اللوحة إطراءً وتوددًا، وفي وقت لاحق خلال فترة الروكوكو أطلق متذوّق ما اسم ڤينوس على هذه السيدة، التحفت السيدة المستبدة بالفراء في نموذج تيتيان خوفًا من البرد أكثر من دافع التواضع، ثم أصبح الفرو رمزًا للطغيان والقسوة الذين يشكلان جوهر المرأة وجمالها. لكن ما يهم الآن هو أن اللوحة ليست إلا هجاءً لاذعًا للحب المعاصر، ڤينوس في هذا المناخ الشمالي وفي هذا العالم المسيحي الجليدي، عليها أن تخبئ نفسها في فراء ضخم ومظلم حتى لا تصاب بالبرد"

ضحك سيڤرين وأشعل سيجارة أخرى، وبعدها فُتح الباب واندفعت فتاة شقراء بدينة وجذابة، تمتلك عيونًا لطيفة وحكيمة، كانت ترتدي حريرًا أسود، وجلبت لنا لحمًا باردًا وبيضًا لتتناوله مع الشاي. التقط سيڤرين بيضة وقطعها بسكينة:

"ألم أقل لك إنني أريدها نصف مسلوقة؟" صرخ بعنف جعل الشابة تنتفض، وقالت على استحياء: "ولكن يا عزيزي..."

"ماذا؟" ثم صرخ: "يجب عليك الطاعة، الطاعة ، هل فهمتِ؟"

ثم نزع السوط المُعلق بجانب الأسلحة، فهربت الشابة الجميلة بسرعة من

الغرفة مثل ظبية مرعوبة. صرخ وراءها: "انتظري، سأنال منك مرة أخرى"

"ولكن يا سيفرين" قلت وأنا أضع يدي على ذراعه: " كيف يمكنك معاملة شابة جميلة هكذا؟"

"ألقِ نظرة عليها" قالها مع غمزة ماكرة تطل من عينيه: "لو توددتْ إليها فلسوف تُلقي بحبل المشنقة حول عنقي، ولكنها حتما ستعبدني عندما أواجهها بالسوط"

"محض هراء"

"هراء!! ليس هناك طريقة لاختراق امرأة غير هذه"

"حسنًا، بإمكانك أن تعيش مثل باشا وسط حريمه ولكن لا تُملِ عليَّ نظرياتك"

قال بحماس: "لم لا؟ لقد قال غوته مرة: "أن تكون المطرقة أوالسندان" ولا يمكن أن تكون هناك عبارة تصف العلاقة بين الرجل والمرأة أكثر دقّةً من هذه، ألم تثبت لك هذا السيدة ڤينوس في حلمك؟ تكمن سلطة المرأة في العاطفة التي يمكن أن توقظها في الرجل والتي تعرف كيف تستغلها لمصلحتها إذا لم يحرس الرجل نفسه، وللرجل خيار واحد فقط؛ أن يكون الطاغية أو عبدًا للمرأة، وبمجرد أن يمنحها عنقه تحت ظل العبودية فسوف يشعر بالسوط ينهال عليه قريبًا "

"ما أغربها من مسلَّمات!!"

"إنها ليست مسلَّمات، ولكنها التجارب" أجابه وهو يومئ برأسه ثم تابع: "لقد شعرت فعلًا بالسوط يلامس جسدي، لقد أشفاني هذا، هل يهمك أن تعرف كيف؟" نهض والتقط مخطوطة صغيرة من مكتبه الضخم، وألقاها أمامي..

"لقد سألتني قبل قليل عن اللوحة، أعتقد أنني مدين لك بتفسير طويل، تفضل اقرأ!"

جلس سيڤرين في الأسفل أمام المدخنة مديرًا ظهره نحوي، وبدا لي أنه يستغرق في أحلامه..

حل علينا الصمت مرة أخرى، وغنت النار مرة أخرى في المدخنة، والسماور والكريكيت في الجدران القديمة. فتحت المخطوطة وقرأت العنوان: اعترافات شبِق غارق في شهوانيته وعلى هامش المخطوطة حُفرت سطور شهيرة جدًا لفاوست: أنت أيها الداعر، أيها الشبق الغارق في شهوانيتك، إن فتاة صغيرة بإمكانها أن تقودك من أنفك"

قلبت صفحة العنوان وقرأت: تم تجميع ما يلي من مذكراتي خلال تلك الفترة، لأنه من المستحيل أن يكتب المرء عن ماضيه، ولكن بهذه الطريقة كل شيء يحفظ ألوانه الجديدة، ألوان الحاضر.

"غوغول أو موليير الروسي، كما كان يلقب، كتب مرة، ولا أذكر أين: الإلهام الحقيقي للملهاة هو امرأة بعينين دامعتين تحت قناع من الضحك"

"مقولة رائعة"

وأكملت القراءة:

يعتريني شعور غريب حال كتابتي لكل هذا، يبدو الجو مثقلًا برائحة قوية تتغلب علي وتسبب لي صداعًا حادًا. يتصاعد دخان الموقد بشكل حلزوني ثم يتكاثف إلى صور، قزم صغير ذو لحية رمادية يشير بإصبعه ساخرًا إلى وجهي، كيوبيد ممتلئ الخدين يتسلق مقعدي وركبتي، علي أن ابتسم رغمًا عني وأضحك بصوت عال حتى وأنا أكتب مغامراتي على الورق. وأنا لا أكتب بحبر عادي، ولكن بالدماء الحمراء التي تتقاطر من قلبي. كل

جراحاتي التي تركت ندوبًا زمنًا طويلًا تفتحت وارتعشت بألم، والآن وبين حين وآخر تسيل الدموع على الورق.

***

الأيام تزحف ببطء في منتجع الكاربات الصحي الصغير، أنت لا ترى أحدًا ولا أحد يراك، الجو عمل بها يكفي لكتابة قصيدة رعوية، لدي الوقت الكافي هنا لتزويد معرض كامل باللوحات، تأثيث مسرح بقطع جديدة لموسم كامل، دزينة من الموهوبين في الكونشيرتو لإنتاج الثلاثيات والثنائيات الموسيقية، ولكن حين نأتي إلى الواقع فكل ما فعلته لم يكن أكثر من تمديد قماش القنب، تمسيد القوس وتسطير ورقة الموسيقى. (أنت لست زائفا، صديقي سيڤرين؛ يمكنك الكذب على الآخرين لكنك لن تفلح في الكذب على نفسك) أنا لست سوى هاوٍ للفنون، هاوٍ للرسم، الشعر، الموسيقى، أو ما يُسمى بالفنون غير المربحة ومع ذلك، فهي تؤمّن لأسيادها دخل وزير في الحكومة، وحتى جزءًا طفيفًا من ثروة أحد الملوك.

وأنا هاو للفنون قبل كل شيء. عشت حتى هذه اللحظة وكأنني فنان، رسمت العديد من اللوحات وكتبت الشعر، لم أتجاوز ما هو أبعد من الاستعداد، جرّة الفرشاة الأولى، موجز الحبكة، الفصل الأول، المقطع الشعري الأول، أنا من هؤلاء الذين يبدؤون بكل شيء ولا ينتهون من شيء. لكن لنعد إلى موضوعنا، أتمدد على مقعد في نافذتي المطلة على البلدة الصغيرة البائسة، والتي تملؤني يأسا. تبدو مليئة حقًا بالشعر، آه كم هو خاطف للأنفاس منظر الجبال الزرقاء التي تغتسل بالضباب والمتشابكة مع أشعة الشمس الذهبية، وتتخللها موجات مهيبة كشرائط من الفضة! ما أصفى زرقة السماء مع كل هذه القباب الشاهقة الثلجية! وما أشد خضرة وعذوبة

المنحدرات المشجرة! والمروج التي ترعى فيها القطعان الصغيرة، وصولًا إلى موجات القمح الصفراء حيث يقف الحصادون، ينحنون ويرتفعون مرة أخرى.

يقع البيت المنزوي الذي أعيش فيه على أرض أشبه بحديقة، أو غابة، أو بريّة أو أيًّا ما يُطلق عليه... سكانه الوحيدون هم أنا، وأرملة من ليمبورج، ومدام تارتاكوفسكي التي تدير المنزل، وهي امرأة عجوز كلما كبرت سنًا انكمشت وأصبحت أصغر، وهناك أيضًا كلب عجوز يعرج على ساق واحدة، وقطة صغيرة تلعب باستمرار مع كرة من الغزل التي أعتقد أنها تنتمي إلى الأرملة. إنّ أقل ما يقال عن هذه الأرملة إنها جميلة جدًا، ولا تزال شابة في الرابعة والعشرين ربما، وثرية جدًا. تقطُن في الطابق الأول، ودائمًا ما تترك الستائر الخضراء منسدلة، ولديها شرفة ضخمة مليئة بالنباتات المتسلقة الخضراء.

أما أنا فأشغل الطابق السفلي، وحولي الحديقة التي تجعل البيت مثل كوخ ورقيّ لطيف، هناك حيث اعتدت على القرّاءة، الكتابة، الرسم والغناء كطائر بين الأغصان. يمكنني رؤية كل ما يحصل في الشرفة ومن وقت لآخر، ألمح رداءً أبيض يومض وسط الشبكة الخضراء الكثيفة. في الواقع، كانت المرأة الجميلة في الأعلى لا تهمني كثيرًا، لأنني متيّم بشخص آخر، وتعيس بشكل رهيب من هذا الحب، أنا أتعس من فارس توغنبيرج أو الفارس في مانون ليسكو؛ لأن محبوبتي مخلوقة من حجر.

***

في الحديقة، وسط البرية الصغيرة، وتحديدًا في المرج الساحر حيث ترعى

بضعة ظباء بسلام. ينتصب تمثال فينوس في المنتصف، والذي أعتقد أن النسخة الأصلية منه تتواجد في فلورنسا، فينوس هذه هي أجمل امرأة رأيتها على الإطلاق في حياتي كلها، ربما هذا لا يعني شيئًا لأنني رأيت بعض النساء الجميلات، أو ـ تستطيع القول ـ أنني لم أرى إلا القليل من النساء أصلاً. وأنا في الحب أيضًا، الهاوي الذي لا يفعل شيئًا إلا الاستعداد، جرة الفرشاة الأولى، وكتابة الفصل الأول... ولكن لماذا نتحدث بمغالاة، كما لو أن شيئًا جميلًا يمكن تجاوزه؟ يكفي أن نقول إنها جميلة وإنني أحبها بحدة مَرَضية، بشغف وجنون كما يمكن للرجل أن يحب امرأة لا تستجيب لحبه، لا تمنحه سوى ابتسامة متحجرة، هيأة أبدية وهدوء سرمدي، آه إنني أعبدها حرفيًا.

عادة عندما ينسل ضوء الشمس من بين الأشجار، أتمدد للقراءة تحت الغطاء الورقي لنبتة البتولا، وكثيرًا ما أزور عشيقتي الباردة القاسية ليلًا، أتشبثُ بركبتيها، أضغط وجهي بقاعدة التمثال البارد، حينها فقط تنطلق صلواتي وابتهالاتي، كلها ترتفع إليها.

يمنح القمر المرتفع والذي تراجع للتو تأثيرًا لا يوصف، يتراءى لي أنه يحوم حول الأشجار، ويغوص المرج في بريق الفضة، تنتصب الإلهة كما لو كانت تتجلى، وتبدو وكأنها تستحم تحت الوهج الشجي.

ومرة عندما كنت عائدًا من صلواتي، وفي أحد الطرق المؤدية إلى المنزل، لمحت صورة امرأة، بيضاء كالرخام، تتوهج تحت ضوء القمر، ثم تلاشت فجأة خلف ستار من الأشجار. يبدو أن حلمي أصبح حقيقة، وبدا التمثال الرخامي كأنه أشفق علي، نبض، تحرك ثم تبعني. استولى علي خوف مبهم، وتصاعد وجيب قلبي كأنه يوشك أن ينفجر. وأنا هاو، ولا شك في ذلك، في العادة أتوقف قليلًا بعد المقطع الموسيقي الأول؛ لكن ما حدث هذه المرة كان العكس، أنا لم أتوقف، بل ركضت بأقصى سرعة تبلغها ساقاي.

***

يا لها من مصادفة، أمكنني من خلال تاجر لوحات يهودي، الحصول على نسخة طبق الأصل من محبوبتي. إنها نسخة صغيرة من عمل تيتيان "فينوس مع المرآة"، يا لها من امرأة! رغبت في كتابة قصيدة ولكنني بدلًا من ذلك التقطت هذه النسخة وكتبت خلفها: فينوس في الفراء، أنت باردة بينما ـ أنت نفسك ـ تُلهبين قلوب الرجال، ملتحفة في فرائك المستبد الذي لا يلائم امرأة سواك يا إلهة الحب والجمال القاسية.

وبعدها أضفت عدة أبيات لغوتة، والتي اقتبستها من باراليبومينا فاوست.

كيوبيد

جناحاه يُكذبان طبيعته

وسهامه ليست إلا مخالب

وتحت أكليل الزهور، ترقُد قرونه الصغيرة

لأنه وبدون شك، مثل كل آلهة اليونان القديمة

شيطان مقنَّع

ثم وضعت الصورة أمامي على المائدة، مسنودة على كتاب، وتأملتها. كنت مبتهجًا، وفي الوقت نفسه مرعوبًا من غنج هذه المرأة الرائعة البارد، من صلابة وحدّة وجهها الرخامي. والتي غلفت مفاتنها بواسطة الفراء المظلم. أخذت قلمي مرة أخرى وكتبت الكلمات التالية:

يالها من سعادة! أن تحب أوتكون محبوبًا، وكيف سيهتُ بريق هذا الحب

ويتضاءل، مقارنة بعذاب عبادة امرأة تجعل منا مجرد دمى، أو مقارنة بكونك عبدًا لطاغية جميلة، تدوس عليك بلا رحمة تحت أقدامها، وحتى شمشون هذا البطل العملاق قد وضع نفسه مرة أخرى بين يدي دليلة بعد أن غدرت به، وغدرت به مرة أخرى، وحتى حين تم أسره وإخماد عينيه من قبل الفلسطينيين، حافظ على ثبات عينيه حتى النهاية، ثملًا بالغضب الممزوج بالحب على تلك الخائنة الجميلة.

***

كنت أقرأ سفر يهوديت وأتناول إفطاري تحت العريشة، لقد حسدت البطل هولوفرينس على نهايته الدموية الجميلة، حين قامت امرأةٌ جليلة بقطع رأسه بسيفها.

"وضرب الرب القدير سبحانه، فأسلمه ليدي امرأة". أعجبتني هذه الجملة بغرابة، وأدركت مدى دناءة ووضاعة هؤلاء اليهود، ربما قد يختار إلههم كلمات أفضل مرة أخرى عندما يتحدث عن الجنس اللطيف.

"وضرب الرب القدير سبحانه، فأسلمه ليدي امرأة" كررتها في سري، ماذا ينبغي أن أفعل حتى يعاقبني الرب؟

لتحفظنا السماء! أنت مدبرة المنزل والتي تَقَلَّص حجمها بعض الشيء بين عشية وضحاها، وهناك وسط الشبكة الخضراء الكثيفة ومض الرداء الأبيض مرة أخرى، وأنا لا أعرف هل هي ڤينوس أم الأرملة؟

إنها حتمًا الأرملة هذه المرة، وقد طلبت مني مدام تارتاكوفسكي نيابة عن السيدة – من باب الكياسة طبعًا – شيئًا لتقرأه، اندفعت إلى غرفتي راكضًا وجمعت بسرعة مجموعة من الكتب. تذكرت في وقت لاحق، صورة

فينوس في أحد الكتب التي أرسلتها، لابد أن يد السيدة البيضاء مشغولة بفك رموزي، ماذا تقول عني الآن؟ إنني أسمعها تضحك، هل هي تضحك مني؟

***

يطل القمر المكتمل على قمم الشوكران المنخفضة في أطراف الحديقة، زفير فضي يملأ الشرفة، مجموعة الأشجار، المناظر الطبيعية بأكملها، وكل ما يمكن للعين أن تراه، ينداح الأفق تدريجيًا مثل مياة مرتجفة.. لا يمكنني المقاومة، أشعر بدافع غريب يجرني، ارتديت ملابسي مرة أخرى وهممت بالخروج إلى الحديقة.. هناك يد خفية تقودني نحو المرج، نحوها، إلهتي وحبيبتي. إنها ليلة باردة، قشعريرة طفيفة تسري داخل جسدي، الجو مسموم ومثقل برائحة الغابة والزهور. أية أبهة! أية موسيقى! تنهدات العندليب. النجوم ترتعش في بريق السماء الأزرق والشاحب. يبدو المرج أملسَ كمرآة، كبركة متجمدة. وهناك في المنتصف، ينتصب تمثال فينوس متألقًا بجلال.

ولكن ما الذي حدث؟ الإلهة ملتحفة بالفراء تمامًا: عباءة فرو السمور الأسود تنزلق من كتفيها الرخاميين حتى أسفل قدميها. وقفتُ مصعوقًا محدقًا في وجهها بذهول، استولى علي خوف مجهول مرة أخرى وهربت بسرعة.

أثناء السير، لاحظت أنني ضللت الطريق الرئيس، وعندما كنت على وشك الإتجاه إلى أحد المناحي الخضراء، رأيت فينوس تجلس أمامي على مقعد حجري، ليست المرأة الجميلة الرخامية بل إلهة الحب نفسها بدم دافئ وقلب نابض. لقد استحالت إلى امرأة حقيقية واندفعت فيها الحياة من أجلي،

مثل تمثال بجماليون الذي بدأ يتنفس من أجل خالقه.

في الواقع، المعجزة نصف مكتملة، لا يزال شعرها الأبيض يبدو وكأنه مصنوع من الرخام، ورداؤها الأبيض يومض مثل ضوء القمر، أو هو حريري.. يتدفق الفراء الضخم من كتفيها، وخلال لحظات بسيطة احمرّت شفتاها، وبدأ خداها بالتلون. وفجأة لمعت عيناها ببريق شيطاني أخضر، وها هي الآن تضحك.

ضحكتها جدًا غامضة، جدًا... آه لا أعرف. لا يمكن وصفها! إنها خاطفة للأنفاس. فررت بعيدًا، وبعد كل بضع خطوات لابد لي أن أتوقف لالتقاط أنفاسي، لاحقتني ضحكة الاستهزاء من خلال الممرات ذات الأوراق الخضراء الداكنة، وعبر المساحات المضيئة المفتوحة، من خلال الدغل حيث لا يخترقه إلا خيط قمر وحيد.

لم أعد أستطيع العثور على طريقي، متخبطًا في ارتباك لانهائي مع قطرات العرق الباردة على جبيني، وأخيرًا وقفت دون حراك وانخرطت في مونولوج قصير (يتضح أن المرء إما أن يكون مهذبًا جدًا مع نفسه أو وقحًا للغاية) وقلت لنفسي: " أيها الأحمق!"

تُمارس هذه الكلمة تأثيرًا ملحوظًا، مثل وصفة سحرية، تحررني وتجعلني سيد نفسي. أنا هادئ تمامًا في هذه اللحظة، كررت بارتياح كبير "أيها الأحمق!"

كل شيء الآن يتضح أمام عيني مرة أخرى، هذه هي النافورة، زقاق من خشب الشمشاد، وها هو البيت الذي أقترب إليه ببطء. وفجأة تمثلت أمامي مرة أخرى، خلف الستار الأخضر والذي يتوهج القمر من خلاله إذ يبدو مطرزًا بالفضة، رأيت مرة أخرى الهيئة البيضاء، المرأة الحجرية التي أعشقها، أخافها وأفر منها. بعد بضع قفزات وصلت إلى المنزل لاهثًا، التقطت أنفاسي،

وتساءلت:

"ما أنا حقًا؟ هل أنا مجرد هاو أم أحمق كليًا"

***

كان صباحًا قائظًا، وكان الجو مثقلًا برائحة مسكرة. جلست مرة أخرى تحت تعريشتي أقرأ الأوديسة، عن تلك الساحرة الجميلة التي تُحول معجبيها إلى وحوش برية، مقدمة تجسيدًا رائعًا عن الحب في العصور القديمة، وفجأة سمعت حفيفًا ناعمًا بين الأغصان والعشب، وحفيفًا ناتجًا عن صفحات كتابي، وعلى الشرفة أيضًا هناك حفيف؛ إنه ثوب امرأة..

إنها هناك... ڤينوس... لكنها بدون فراء، لا، إنها هذه المرة مجرد أرملة.. والآن آه إنها ڤينوس، يالها من امرأة! تقف هناك في غلالتها الصباحية البيضاء المضيئة، تنظر إلى وجهي، وهيئتُها تنضح بالشِّعر والنعمة. لم تكن طويلة، وليست بالقصيرة أيضًا، هي ليست جميلة فحسب؛ بل كان وجهها فاتنًا، حادًا، كوجوه الماركيزات الفرنسيات. يا لفتنتها وعذوبتها! يا لهذا السحر الشيطاني الذي تبثه ملامحها، شفتاها المكتنزتان، بشرتها الشهية والرقيقة بشكل فوق التصور، رقيقة إلى درجة أن بشرتها تشف عن عروقها الزرقاء، حتى من خلف الموسلين الخفيف الذي يغطي ذراعيها ونهديها.

شعرها الكثيف الأحمر.. نعم إنه أحمر لا أشقر أو ذهبي، كيف يلتف بغنج وشيطانية حول عنقها!! والآن التقت عيناها بعيني مثل بروق خضراء، عيناها خضراوان، والتي لا يمكن وصف سلطتهما، خضراء مثل الأحجار الكريمة أو البحيرات الجبلية التي لا يُسبر غورها العميق.

لاحظت ارتباكي فأضفت علي هذه الملاحظة نوعا من الفظاظة؛ لأنني

بقيت جالسًا ولا زالت قبعتي على رأسي. ابتسمت بخبث، وأخيرًا نهضت وانحنيت لها. اقتربتُ أكثر بضحكة طفولية صاخبة. تلعثمتُ كهاو صغير أو أحمق، لا يملك إلا أن يفعل هذا في هذه المناسبة، وهكذا تعرفنا إلى بعضنا. سألتني الإلهة عن اسمي وذكرتْ اسمها بالدور، كان اسمها (فاندا فون دوناجوف)، وهي ليست إلا حبيبتي فينوس.

"ولكن يا سيدتي، ما الذي زرع هذه الفكرة في رأسك؟"

"الصورة الصغيرة في أحد كتبك"

"لقد نسيت أمرها تمامًا"

"والأسطر الغريبة خلف الصورة..."

"لماذا غريبة؟"

تفرستْ في وجهي وقالت: "لطالما رغبتُ أن ألتقي بحالم حقيقي، مختلف كليًا، إنك تبدو لي أكثر جنونًا ووحشية مما ظننت"

"في الواقع، مدام، أنا..." وشعرتُ مرة أخرى أنني ضحية للعثمة بغيضة وبلهاء، وبدا أني احمررت خجلًا بطريقة قد تكون مناسبة لشاب في السادسة عشرة من عمره، ليس بالنسبة إلي، أنا الأكبر بعشر سنوات تقريبًا

"لقد كنت خائفًا مني في الليلة الماضية؟"

"صحيح، في الواقع... ولكن هلا تفضلتِ بالجلوس؟"

جلستْ واستمتعت هي بإحراجي، لأنني في الواقع كنت أخافها أكثر في ضوء النهار، ولاح من شفتها العليا تعبير ازدراء لذيذ.

"يبدو أنك.. تنظر إلى الحب وخصوصًا إلى المرأة، كشيء عدائي، شيء يقوض كل ما كنت تستميت للدفاع عنه بلا طائل، أنت تؤمن بأن سلطتها

تبعث فيك شعوراً مثيرًا، من أثر القسوة الحادة، وهذا هو التصور الحديث للمسألة بحق. "

"ألا تشاركينني هذا التصور؟"

"لا، لا أشاركك" قالتها بسرعة وبصورة حاسمة، وهي تهز رأسها، ما جعل شعرها الأجعد يتبدد مثل ألسنة اللهب الحمراء، وتابعت: "إن كل ما أعمل جاهدة لتحقيقه في حياتي هو شهوانية الإغريق الهادئة، لذة بلا ألم، أنا لا أؤمن بالحب الذي بشرت به المسيحية، وفرسان الروح الحداثيون، نعم انظر في وجهي، أنا أسوأ من هرطوقية أنا وثنية.. أتظن أن آلهة الحب تشاورت لوقت طويل، عندما سحر البطل أخيل أعينها في بستان إيد؟.. لطالما أبهجتني هذه الأسطر من مرثية غوته الرومانية. لا يوجد في الطبيعة إلا حب من العصر الملحمي، عندما تحب الآلهة. في تلك الأوقات كانت تَتْبع الرغبةُ النظرةَ الأولى، الرغبة للمتعة فقط، وكل عداها فهو مفتعل، متكلف ومجرد كذبة. إن المسيحية هي التي نادت بالقسوة، ولطالما بدا لي أن الصليب أداة فظيعة جرّت شيئًا غريبا معاديًا للطبيعة ولغرائزها البريئة. الصراع بين الروح والجسد هو إنجيل الإنسان الحديث، والذي لا أتمنى أن يكون لي نصيب منه"

هتفتُ: "نعم سيدتي أنت تنتمين إلى جبل أوليمبوس، ولكننا ـ نحن الحديثين ـ لم نعد نطيق صفاء فلسفة القدماء، خصوصا في مسألة الحب، تبدو فكرة أن يتشارك الرجل امرأة مع آخرين ـ حتى لو كانت أسبازيا ـ مثيرةً للاشمئزاز بالنسبة لنا، نحن غيورون كما تغار آلهتنا، على سبيل المثال، لقد أنتجنا مصطلح (الإساءة) من فيرين المجيدة، نحن نفضل إحدى عذارى هولبيان الهزيلات والشاحبات، واللاتي ينتمين إلينا فقط، على ڤينوس الغابرة، لا يهم كم هو إلهي جمالها، نحن ننتمي إلى عالم يكون الذي يحب فيه

آنخيسس اليوم، باريس غدًا وأدونيس في اليوم الذي يليه. ولو غالبتنا الطبيعة حتى نخضع، فإننا نهبُ كل ألقنا وإخلاصنا العاطفي لامرأة، يظهر انتشاؤها الوديع لنا كشيء شيطاني ووحشي، ويبدو نعيمنا خطيئة يجب تكفيرها"

"أنت أيضًا مثل هؤلاء الذين يهذون حول النساء الحديثات، تلك المخلوقات الهستيرية البائسة اللواتي لا يُقدّرن الرجل الحقيقي، وخلال سيرهن أثناء النوم يبحثن عن رجل حالم وذكر مثالي، ووسط الدموع والاختلاجات يسخطن يوميًا من واجباتهن المسيحية؛ يَخدعن ويتم خداعهن، دائمًا ما يبحثن مرة أخرى، يختزن ويرفضن... هن لسن سعيدات أبدًا، ولا يمنحن السعادة على الإطلاق، وبكل هدوء يتهمن القدر بدلًا من الاعتراف بالرغبة بالحب والعيش كما عاشت هيلين وأسبازيا، لقد اعترفت الطبيعة بعدم الدوام في العلاقة بين الرجل والمرأة"

"ولكن يا سيدتي العزيزة..."

"دعني أنتهِ، إنها فقط أنانية الرجل الذي يريد أن يُبقي على كل النساء ككنز مدفون، لقد تحطمت جميع المساعي للحفاظ على دوام الحب، الأكثر تغيرًا في هذا الوجود الإنساني المتغير، بالرغم من كل الاحتفالات الدينية، النذور، والطقوس الشرعية، هل تستطيع أن تنكر أن عالمنا المسيحي اضمحل وسقط في الفساد؟"

"ولكن.."

"ولكنك على وشك القول، إن الفرد الذي تمرد ضد ترتيبات المجتمع قد نُبذ، وُسم ورجم. ليكن، وأنا على استعداد للمجازفة، لأجل مبادئي الوثنية سوف أعيش حياتي كما يحلو لي دون أي احترام لنفاقك؛ فأنا أفضل أن أكون سعيدة. لقد كان ابتكار الزواج المسيحي لائقا بابتكار الخلود أيضًا،

أيًّا كان المبتكر. أنا لا أؤمن بأنني سأعيش إلى الأبد، ولا أرغب في العيش إلى الأبد، ما الفارق الذي سيصنعه انتهاء حياتي، حياة فاندا فون دوناجوف على الأرض، وما نفعي أنا حين تنضم روحي الطاهرة إلى جوقة من الملائكة، أو إذا كان رمادي دخل في تكوين كائنات جديدة؟ هل يجب أن أنتمي لرجل وحيد لا أحبه، فقط لأنني أحببته مرة واحدة في ما مضى؟ لا، أنا لن أتنازل، لن أنكر نفسي، سأحب كل رجل يحلو لي، وأمنح السعادة لكل رجل أحبه. هل هذا شيء مروع؟ لا، حتى الآن إنه أفضل من الابتهاج بالعذاب الذي يثيره جمالي، والذي ابتعد كثيرًا عن هذا الرجل المسكين الذي يحترق بالعاطفة لأجلي، أنا شابة غنية وجميلة وأعيش بهدوء بحثًا عن اللذة والمتعة"

حين كانت تتحدث تألقت عيناها بخبث، فالتقطتُ يديها دون أن أعرف بالضبط ما ينبغي القيام به، ولأنني أبدو كهاو حقيقي تركتهما بسرعة تسقطان مرة أخرى.

قلت لها: "صراحتك أبهجتني، ليس ذلك فقط..."

شل حلقي انحراجي المرتبك، وشعرت باختناق، كما لو أن هناك حبلًا حول عنقي.

"تابع"

"لقد كنت على وشك القول... أقصد إنني أود القول.. مدام سامحيني أنا آسف لقد قاطعتك"

"أوه حقًا؟"

حل علينا صمت طويل، ولا شك أنها الآن تردد في نفسها كلمة واحدة: "أحمق"

وأخيرًا نطقتُ وقلت لها: "لو سمحت لي بالسؤال، كيف وصلتِ إلى

هذه.. هذه الاستنتاجات؟"

"والدي.. ببساطة كان رجلًا ذكيًا، ومنذ طفولتي وأنا محاطة بنسخ طبق الأصل من الفن القديم، كنت في العاشرة من عمري حين قرأت جيل بلاس، وفي الثانية عشرة قرأت عذراء أورليان، حينما كان الآخرون يقرأون عقلة الإصبع، اللحية الزرقاء، سندريلا... كأصدقاء للطفولة، بينما كان أصدقائي فينوس وأبولو، هرقل ولاوكون، وزوجي أيضًا امتلأت شخصيته بالصفاء والسعادة، وحتى المرض العضال الذي نهشه بعد فترة وجيزة من زواجنا لم يكوّن إلا سحابة طويلة أعلى جبينه، أخذني بين ذراعيه في ليلة وفاته، وخلال الأشهر العديدة عندما كان يحتضر في كرسي متحرك، دائمًا ما كان يقول لي مازحًا: حسنًا، هل انتقيتِ حبيبًا؟. صبغة حمراء تعتلي وجهي خجلًا وعارًا، ثم يكمل: لا تخدعيني. وأضاف في مناسبة أخرى: بالرغم من أن هذه الفكرة تؤلمني، لكنني أعلم أنك يجب أن تجدي لنفسك عاشقًا جذابًا، أو حتى عدة عشاق، أنت امرأة رائعة، لكنك لا تزالين طفلة تحتاج اللعب. أظن أنني لست مضطرة للقول إنني، وخلال فترة حياته، لم يكن لدي أي عاشق، ولكن من خلاله فقط أصبحت ما أنا عليه الآن، امرأة إغريقية"

قاطعتها وقلت: "إلهة"

ابتسمت: "أي واحدة؟!"

"فينوس"

قطبت حاجبيها وهددتني باصبعها: " فينوس في الفراء ربما، احترس، لدي فراء كبير جدًا يمكنه أن يغطيك بالكامل، وعلي اصطيادك مثل سمكة في شبكتي"

قلت بسرعة مستجيبًا للفكرة التي لمعت في رأسي، وبدت جيدة على

الرغم من ابتذالها: "هل تؤمنين... هل تعتقدين أن نظرياتك يمكن تنفيذها في الوقت الحاضر؟ أعني أن يُتاح لفينوس بكل سحرها العاري أن تلهو مع إمكانية إفلاتها من العقاب في عالم اليوم؟"

"ليست عارية بالطبع لكنها ملتحفة بالفراء" أجابت مبتسمة ثم تابعت: "هل أنت مهتم برؤيتها!؟"

"وثم..."

" ثم ماذا؟!"

"جميلة، حرة، هادئة وكائن مبتهج مثل ما كان الإغريق بإمكانهم فقط أن يوجدوا أينما تواجد العبيد لتنفيذ مهامهم اليومية الوضيعة"

"طبعا" أجابت بهزلية وتابعت: "احترس مني، فإلهة أولمبية مثلي تحتاج جيشًا كاملا من العبيد"

"لماذا!؟"

أنا نفسي كنت خائفا من الجرأة التي نطقتُ بها "لماذا"؛ ولكنها لم تجفل على الأقل. تراجعت شفتاها إلى الوراء قليلا بحيث اتضحت أسنانها البيضاء الصغيرة، ثم قالت باستخفاف كما لو أنها تناقش مسألة حقيرة: " هل تريد أن تكون عبدي!؟"

"لا توجد مساواة في الحب" أجبتها بجدية وتابعت: "ومتى ما خيّرت بين الهيمنة والخضوع فإنه يبدو مُرضيا بالنسبة لي أن أكون عبدًا لامرأة جميلة، ولكن، أين أجد امرأة تعرف كيف تسيطر علي بهدوء وثقة، وربما حتى بصرامة؟ سأمقتها لو سعت للسلطة من خلال تفاهتها المزعجة."

"أوه.. قد لا يكون هذا صعبًا للغاية"

"أتظنين ذلك؟"

"أنا على سبيل المثال..." ضحكت وانحنت بغطرسة "لدي موهبة حقيقية في الاستبداد... ولدي أيضًا الفراء اللازم... ولكن هل كنت حقًا مرعوبا مني في الليلة الماضية!؟"

"نعم لقد كنت"

"والآن!؟"

"الآن أنا مرعوب أكثر من أي وقت مضى!"

***

أنا وڤينوس الآن نلتقي كثيرًا، تناولنا طعام الإفطار تحت تعريشتي، والشاي في غرفة جلوسها الصغيرة، لدي الآن الفرصة لأكشف عن كل مواهبي الصغيرة والجبانة. ما الفائدة من تضلعي في العلوم والفنون إذا لم يكن لنيل إعجاب امرأة جميلة وصغيرة؟ لكنها ليست "امرأة صغيرة". في الحقيقة لقد ملأتني رهبة. صنعتُ لها اليوم بورتريه، وأيقنت للمرة الأولى كم هي الملابس الحديثة غير ملائمة لجمالها الأشبه بسر الأحجار الكريمة! تكوين وجهها يحتوي على لمسة رومانية والكثير الكثير من الإغريق. أود أحيانًا أن أرسمها مثل سايكي، وأحيانًا أخرى مثل عشتروت، وذلك يعتمد على التعبير في عينيها، إما أن تكون حالمة بغموض، أو نصف مُبيدة، مليئة بالرغبة المتعبة. ومع ذلك تصر على أن أقدم بورتريه صريحًا لها.

حسنًا لنرى، يجب أن ألفّها بالفراء، كيف يمكنني أن أتردد؛ أنا متأكد أنه لا شيء هناك يلائمها أكثر من الفراء!

***

كنتُ معها مساء أمس أقرأ لها المرثيات الرومانية، وضعت الكتاب جانبًا، تحادثنا قليلًا وبدت مسرورة، لقد تنهدت وأنصتت لكل كلمة قلتُها.. هل كنتُ مخطئًا؟

تساقط المطر بكآبة على زجاج النافذة، ودوّت النار في المدفأة كما لو أنها تدوي في قلب الشتاء. شعرتُ براحة معها، ولوهلة تبدد كل خوفي من هذه المرأة الجميلة. قبّلت يدها ولم تمانع هي، ثم جلست عند قدميها وقرأت لها قصيدة قصيرة كنتُ قد كتبتها لها.

فينوس في الفراء

ضعي قدمكِ فوق عبدك

يا سيدة الأساطير، أيتها الشيطان الرخيم

جسدكِ الرخامي مُستلقٍ

بين نباتات الآس والصبار

وهلم جرًّا... هذه المرة تجاوزت فعليًّا المقطع الشعري الأول، وبناء على طلبها أعطيتها القصيدة في المساء دون الاحتفاظ بأية نسخة. الآن وأنا أكتب في مذكراتي لا يمكنني تذكر إلا المقطع الأول. أنا مُتخم بمشاعر غريبة جدًا. لا أصدق أنني واقع في حب ڤاندا؛ أنا واثق أنني في لقائنا الأول لم أشعر بأي انتفاضة أو عاطفة أشبه بضربات السكين في جسدي، لكنني بالرغم

من ذلك كنتُ مدركًا أن جمالها الرباني سينصب لي تدريجيا كمائن سحرية. إنه ليس عطفًا روحانيًا هذا الذي ينمو داخلي، لكنه خضوع مادي مُقبِل ببطء شديد وبلا هوادة. كل يوم يمر أعاني فيه أكثر من سابقه، وأما هي فلا تفعل شيئًا سوى الابتسام.

***

اليوم قالت لي فجأة ودون أي سياق: "أنت تثير اهتمامي. معظم الرجال متشابهون جدًا، إنهم بلا حيوية أو شاعرية، أما أنت ففي عُمقك حرارة ورصانة، تبعثُ الدفء في صدري.. ربما سأحبك يومًا ما سيڤرين"

***

بعد عاصفة مطرية قصيرة ولكنها شديدة، خرجنا معًا إلى المرج لزيارة تمثال ڤينوس، بدا وكأن الأرض التي تحيط بنا تتبخر، ارتفع الضباب نحو السماء مثل سحب من البخور، لا يزال قوس قزح الممزق يتأرجح في الهواء، لا تزال الأوراق تتساقط من الشجر، العصافير وطيور البرقش تقفز من غصن إلى غصن، إنها تزقزق بمرح، كأنها مسرورة جدًا من شيء ما، كل شيء ينضحُ بعبير آسر.. لا يمكننا عبور المرج لأنه لا يزال رطبًا، وتحت ضوء الشمس يبدو مثل بركة صغيرة، كأن إلهة الحب ترتفع من تموجات سطحه الأشبه بالمرآة، وحول رأسها سرب من البعوض الراقص الذي استمد بريقه من ضوء الشمس. قائدا مبتهجة بهذا المشهد الجميل. لأننا لا نستطيع الجلوس على المقاعد التي لا تزال رطبة، فقد اتكأتْ بنعومة على ذراعي لتستريح قليلًا. إرهاق لذيذ تغلّب عليها وتخلل كل كيانها، عيناها نصف

مغلقتين، وشعرتُ بحرارة أنفاسها تُلهب خدي.

لا أعرف حقيقةً كيف استجمعتُ الشجاعة الكافية لأمسك يديها متسائلا: "هل يمكنكِ أن تحبيني؟"

"لم لا؟" أجابت بنظرة هادئة وشيطانية. ركعتُ أمامها، ودفنت وجهي المحموم في الموسلين العبق الذي كانت ترتديه.

"ولكن سيڤرين... هذا ليس لائقًا" احتجّت، لكنني التقطت قدمها الصغيرة وضغطت شفتي عليها فصرَخَتْ: "أنت تزداد سوءًا!!" انتزعت نفسها منّي وهربت بسرعة نحو المنزل تاركة خفّها الرائع في يدي. هل يمكنني اعتبار هذا فألًا حسنًا؟

***

لم أجرؤ على الاقتراب منها سائر اليوم، وقبيل المساء كنتُ جالسًا في تعريشتي. أطل رأسها الأحمر الساحر فجأة من خلال النباتات الخضراء في شرفتها. قالت بفارغ الصبر: "لماذا لا تأتي؟" صعدتُ الطابق العلوي، حينما وصلت للنهاية فقدت الشجاعة مرة أخرى. طرقتُ الباب بخفة، لم تقل لي ادخل؛ لكنها فتحت الباب بنفسها، وقفت على العتبة وقالت: "أين خفي؟"

تلعثمتُ: "إنه... لدي... أريد أن"

"أحضره، وبعدها سنشرب الشاي معًا ونثرثر"

كانت مشغولة بإعداد الشاي عندما عدت. وضعتُ الخف باحتفال على الطاولة ووقفت في الزاوية مثل طفل صغير ينتظر عقوبته. لاحظتُ أن حاجبيها انعقدا قليلًا، كان هناك تعبير صارم مهيمن حول شفتيها المبهجتين،

وفجأة انفجرت ضاحكة: "هكذا إذن أنت واقع في حبي؟"

"نعم، وأنا أعاني جراء ذلك أكثر مما تتخيلين"

"أنت تعاني؟" وضحكت مرة أخرى.

"شعرتُ بالعار والخزي، لكن كل هذا كان بلا فائدة تمامًا."

"لماذا؟" وتابعت: "أنا لطيفة معك، ومولعة بك، من أعماق قلبي"

"هل تتزوجينني إذن؟"

نظرت إلي ڤاندا، وكيف نظرت إلي يا إلهي؟ أعتقد أنها نظرت بذهول في البداية ثم بشيء من السخرية.

"من أين واتتك الجرأة هكذا فجأة؟"

"جرأة؟"

"نعم الجرأة لتطلب من امرأة مجهولة الزواج، ومني خصوصًا؟" رفَعَت الخِف أمام وجهي وتابعت: "هل هو بسبب صداقة مفاجئة مع هذا؟ لندع المزاح جانبًا، هل تتمنى حقًا الزواج بي؟"

"نعم"

"سيڤرين، هذه مسألة جدية، أعتقد أنك مغرم بي، وأنا كذلك: والأهم من كل هذا أن يجد أحدنا الآخر مثيرًا للاهتمام، وليس هناك أي خطورة من أننا سوف نشعر بالملل قريبًا، لكنك تعلم أنني امرأة متقلبة، ولهذا السبب فقط أود أخذ الزواج على محمل جدي، إذا تعهدتُ بشيء أريد أن أتأكد من قدرتي على الالتزام والوفاء به، لكنني أخشى... لا، ربما يؤذيك هذا"

"أتوسل إليك، كوني صريحة معي"

"حسنًا إذن، أنا بصراحة لا أعتقد أنني يمكن أن أحب رجلا أكثر من...." أمالت رأسها برشاقة إلى جانب واحد مُفكرة.

"سنة؟"

"يا إلهي، لا! شهر ربما"

"ولا حتى أنا؟"

"نعم حتى أنت، أو ربما شهرين في حالتك"

صرختُ: "شهرين!!"

"شهران مدة طويلة جدًا"

"مدام، أنتِ تفوقين الإغريق القدامى"

"أترى!؟ أنت لا تستطيع تحمل الحقيقة"

نهضتْ فاندا وسارت في أنحاء الغرفة، ثم اتكأت بإحدى ذراعيها على المدفأة، نظرت إلي بعمق وسألت: " ماذا أفعل معك؟"

"أي شيء ترغبين فيه" أجبتها باستسلام، وتابعت " أي شيء قد يمنحكِ المتعة."

"يا له من تناقض" صرَخَت " أولًا أنت تريدني أن أصبح زوجتك ثم تُقدم نفسك لي كدمية ألهو بها!"

"فاندا، أنا أحبك"

"الآن نعود حيث بدأنا. أنت تحبّني، وتريد الزواج بي، لكني لا أريد الدخول في زواج جديد، لأنني أشك في دوام مشاعرنا تجاه بعضنا"

أجبتها: " وإذا كنتُ على استعداد للمجازفة والالتزام معكِ؟"

قالت بهدوء: "إن عرضك يتطلب مني المجازفة والالتزام أيضًا. يمكنني بسهولة تصور انتمائي لرجل واحد طوال حياتي كلها. ولكن يجب عليه أن يكون رجلا حقيقيا، رجلا يهيمن علي، يُخضعني بسلطته الفطرية، هل تفهم ذلك؟ كل رجل - وأنا أعرف ذلك جيدًا - بمجرد أن يقع في الحب يصبح ضعيفًا، مذعنًا، مثيرًا للسخرية. مستسلمًا وراكعًا أمامها. إن الرجل الوحيد الذي يمكنني أن أحبه دومًا هو الذي ينبغي لي الركوع أمامه قبل أن يفعل هو، لكنني مع ذلك مغرمة بك؛ لذلك سأحاول معك"

ألقيتُ بجسدي عند قدميها.

"بحق السماء!! أنت على ركبتيك بالفعل" ثم تابعت بسخرية: "إنها بداية مُبشرة" وأكملت عندما نهضت: "سأمنحك عامًا كاملا لتفوز بحبي، لتقنعني بأننا ملائمان لبعضنا، ومن الممكن أن نعيش تحت سقف واحد، وإذا نجحت فأنا زوجتك، زوجتك التي ستؤدي جميع واجباتها بإخلاص تجاهك سيثرين، وخلال هذه المدة، هذا العام سنعيش كما لو أننا زوج وزوجته"

ارتفع الدم إلى رأسي واشتعل خداها بوهج أحمر.

"سوف نعيش معا خلال النهار، نتشارك حياتنا اليومية، حتى نتمكن من معرفة أننا بالفعل مناسبان لبعضنا، إنني أمنحك كل حقوق الزوج، الحبيب والصديق. هل أنت راضٍ الآن؟"

"ليس عندي خيار آخر"

"أنت غير مضطر للقبول"

"ليكن إذن"

"عظيم! الآن أنت تتحدث كرجل حقيقي. ها هي يدي."

***

كنتُ معها في كل ساعة لمدة عشرة أيام، باستثناء الليل طبعا، ومسموح لي خلال الوقت كله أن أغوص في عينيها، أحتضن يديها، أستمع لكل كلمة تقولها وأرافقها أينما ذهبت. يبدو حبي لها مثل هاوية سحيقة، أغرق فيها أعمق وأعمق، لا شيء بإمكانه أن ينقذني الآن.

بعد ظهر هذا اليوم كنّا نستريح على المرج عند سفح تمثال ڤينوس، قطفتُ الزهور وألقيت بها في حضنها، وانتهى بها الأمر إلى نسج أكاليل من الزهور أشبه بالتي نزين بها آلهتنا، وفجأة نظرت ڤاندا إليّ بغرابة، جرّاءها اختلطت أحاسيسي، واكتسحت العاطفة رأسي مثل حريق. مُتخليا عن كل القيود رميتُ ذراعيَّ حولها وتشبثتُ بشفتيها، وهي تجرني أقرب فأقرب لاختلاجات صدرها.

سألتها: "هل أنتِ غاضبة؟"

"أنا لا أغضب أبدًا على أشياء طبيعية..." وتابعت: "لكن أخشى أنك تعاني"

"أوه، أنا أعاني بشكل مرعب"

" صديقي المسكين!" مسدَت شعري المتشابك وأعادته إلى جبيني وقالت: "آمل ألا يكون هذا خطئي"

"لا" أجبتها " لكن حبكِ قد تحول إلى نوع من الجنون، فكرة أن أفقدك، وربما في الواقع قد أفقدك، تعذبني"

"لكنك لم تمتلكني بعد" قالتها ڤاندا ملقيةً نظرة مُهلكة مليئة بالحياة.علي

بعينيها النديتين ، والتي بالفعل بعثت فيَّ الاضطراب والخراب. نهضتْ ووضعت بيديها الشفافتين الصغيرتين إكليلا من شقائق النعمان الزرقاء على رأس فينوس الرخامي الأبيض. قاومتُ بجهدٍ رغبة أن أندفع وأطوّق جسدها بيدي.

"لن أستطيع العيش بدونك، آه أيتها المرأة الجميلة، صدقيني، صدقيني هذه المرة فقط، إنها ليس مجرد كلمات، ولا حتى أوهام، أشعر في عمق روحي أن حياتي مرتبطة بحياتك، أنا هالك لا محالة فلا تتركيني، سأصير حطامًا."

"لا ضرورة لذلك، لأنني أحبك"

أمسكت ذقني وتابعت: "أنت رجل مغفل."

"لكنكِ ستكونين ملكي تحت شروط محددة بينما أنا سأكون ملكك دون شروط"

"أنت شخص غريب، إذن هل تود امتلاكي مهما كان الثمن؟"

"نعم. بأي ثمن."

"ولكن ما هي قيمة امتلاكي..." فكرتُ ثم نظرت إلي بطريقة مثيرة للقلق: "إذا لم أعد أحبك، وإذا أصبحتُ ملك رجل آخر؟"

رعدة باردة سرت في كامل جسدي، نظرتُ إليها وهي جالسة أمامي، واثقة ومُسيطرة وعيناها تكشفان عن ألق بارد: "كما ترى لقد أرعبتك هذه الفكرة" ابتسامة جميلة أضاءت وجهها فجأة، قلت: "هذا صحيح، أنا مرعوب جدًا عندما أتصور بأن المرأة التي أحب، المرأة التي استجابت لحبي يمكن أن تمنح نفسها لرجل آخر، ولكن هل لدي خيار؟ إذا كنتُ أحب هذه المرأة، أحبها حد الجنون، هل يجب أن أدير لها ظهري وأفقد كل شيء من أجل كبريائي، هل يجب أن أوّجه الرصاصة إلى رأسي؟ إذا لم أستطع الحصول على

امرأة نبيلة وبسيطة، امرأة لديها الاستعداد لتشاركني حياتي بكل إخلاص، حسنا إذن، انا لا أريد أن أدرك النصف أو أي شيء فاتر، أفضل عوضًا عن ذلك أن أخضع لامرأة بلا فضيلة، بلا إخلاص أو شفقة، مثل هذا المرأة بأنانيتها المهيبة ستكون حتما إلهتي."

صرختْ ڤاندا: "هل فقدت عقلك؟"

"أحبك من عمق روحي، بكل جوارحي، أنت وكل ما يتعلق بك ضرورة لوجودي، ينبغي أن تختاري، افعلي ما تشائين معي، اتخذيني زوجا أو عبدًا"

"حسنا" قالتها ڤاندا باقتضاب وهي تعقد حاجبيها المقوسين وقالت: "حتما سيكون ممتعًا أن تكون لي السلطة المطلقة على رجل يهمني ويحبني، على الأقل أنا متأكدة أني سأستمتع، كنتَ حكيمًا بما يكفي لتترك الخيار لي، لذلك أنا اخترت؛ أريدك أن تكون عبدًا لي لأعاملك كدمية بين أصابعي."

صرختُ بمزيج من الخوف والبهجة: "أوه أرجوكِ افعليها" وتابعت: "إن أساس الزواج يعتمد على المساواة والتوافق، لكن صحيح أيضًا أن أعظم المشاعر تتولد من التقاء النقيضين، نحن متناقضان، نحن بالأحرى أعداء، لهذا السبب حبي لك جزء منه كراهية والجزء الآخر خوف، في مثل هذه العلاقة أحدنا سيكون المطرقة والآخر هو السندان، وأنا اخترت أن أكون السندان، لا أستطيع أن أكون سعيدا عندما أجدني أنحني للأسفل لأنظر للمرأة التي أحب"

" ولكن سيڤرين" أجابت ڤاندا بغضب: " هل تعتقد أنني قادرة على إساءة معاملة رجل يحبني مثلك، والذي أحبه بدوري؟"

"لم لا إذا كنتُ سأعشقك أكثر لأجل هذا؟."

"إذن هل يجذبك ما يجده الآخرون مثيرًا للاشمئزاز؟"

"نعم، هذه هي طبيعتي الغريبة"

"ربما، ورغم هذا ليس هناك شيء فريد جدًا أو غريب في كل شغفك، من يقاوم الفراء الجميل؟ وكلنا نعرف ونشعر أن هناك ارتباطًا بين الحب الشهواني والقسوة."

أجبتها: "لكنني متطرف جدًا، وبالنسبة لي فهذه الأشياء تتجاوز الحد المعقول"

"أنت تعني أن أدنى قوة قد تهلكك لأنك ضعيف، شهواني وخانع بطبيعتك؟"

"وهل الشهيد ضعيف وشهواني بطبيعته أيضًا؟"

"الشهيد؟"

"الشهداء كانوا محض كائنات شهوانية تمتعت بالألم والمعاناة، وسعت لأكثر أعمال التعذيب ترويعًا وحتى من خلال الموت نفسه، أنا مثلهم مدام، شهواني وأبحث عن المتعة"

"احذر لا تكون شهيدًا للمرأة، لكن شهيدًا للحب"

***

كنّا جالسين في شرفة ڤاندا الصغيرة؛ ليلة دافئة ومتخمة بعبق الصيف، سقف مزدوج يؤوينا، الأول هو السقف الأخضر من النباتات المتسلقة، والآخر قبة السماء المليئة بنجوم متناثرة لا تعد ولا تحصى، نداء الحب الخافت والحزين يرتفع من جوف القطة في الحديقة، جالسا عند قدمي إلهتي، وأقص

لها عن طفولتي.

سألتني ڤاندا: "وفي ذلك الحين، هل تجلت كل هذه الميول الغريبة فيك؟"

"بالطبع، لا أستطيع تذكر وقت لم أكُن خاضعًا لها، وحتى والدتي أخبرتني أنني في المهد كنت غارقًا بشهوانيتي، احتقرت صدر مرضعتي ولهذا أطعموني حليب الماعز، وعندما كنت صبيًا صغيرًا كنت خجولًا بشكل غير مفهوم أمام النساء، والذي لم يكن في الحقيقة إلا تعبيرًا عن شغف عميق بهن، كنت مضطهدًا من قبل الأقواس الرمادية والجوانب المظلمة في الكنائس، وكان يستولي علي مرض شديد من المذابح البراقة وصور القديسين، إلا أنني كنت أتسلل سرًا نحو المتعة المحرمة، إلى تمثال ڤينوس المنتصب في مكتبة والدي الصغيرة، أجثو على ركبتي أمامها وأرفع ابتهالاتي التي تعلمتها من الصلاة الربانية، إيف ماريا، أسس العقيدة، في إحدى المرات تركت فراشي ليلا لزيارتها، يسقط فوقي الضوء المنبعث من القمر المنجلي، واغتسلت الإلهة تحت الوهج الأزرق البارد، وجدت نفسي أركع أمامها وأقبّل قدمها الباردة، كما يقبل الفلاحون الذين يعملون لدينا قدم المخلّص الميت، استولى علي توق لا يقاوم، ارتفعت واحتضنت الجسد البارد الجميل، وقبلت الشفاه الباردة، وسرت قشعريرة عميقة في جسدي، وفي وقت لاحق في المنام، رأيت رؤيا كأن الإلهة تقف بجانب فراشي وترفع يدها بتهديد في وجهي.

تم إرسالي إلى المدرسة مبكرًا وسرعان ما وصلت إلى الجمانيزيوم، استولى علي شغف بكل شيء يَجعل العالم القديم في متناول يدي، وسرعان ما كنت أكثر دراية بآلهة الإغريق من دين يسوع.

كنت مع باريس حينما أعطى التفاحة المسمومة إلى ڤينوس، رأيت طروادة تحترق، وتبعت يوليسيس في مغامراته، توغلت نماذج كل ما هو جميل في عمق روحي، وعندما كان الأولاد الآخرون وقحين وجلفين، أظهرتُ نفورًا

شديدًا تجاه كل ما هو خاضع لقواعد مسبَّقة، تجاه كل شيء مبتذل وبشع. في بداية تفكيري في الحب كنت أراه بعيون المراهق المفتقر للخبرة فيبدو أنه شيء جلف وسوقي، وتجنبتُ كل احتكاك بالجنس اللطيف رغم تطرفي الشهواني.

عندما كنتُ في حوالي الرابعة عشر من عمري، جلبَتْ والدتي خادمة شابة جميلة وساحرة، بجسدها هذا الذي عبر لتوه مهد الأنوثة، كنت أجلس يومًا ما لدراسة تاسيتوس بحماستي المتنامية تجاه فضائل الجرمان القديمة، بينما كانت هي تكنس غرفتي، وفجأة توقفَت، انحنت فوقي والمكنسة في يدها ووضعت شفتيها المكتنزة اللذيذة على شفتي، انزلقت قبلة القطة العاشقة الصغيرة، مسببة رعشة ضربت في عمودي الفقري، لكن جرمانيتي تضخمت مثل درع واقٍ من الإغواء، وتركتُ بسخط غرفتي."

اندفعت ڤاندا للضحك بصوت عال:

"أنت بالفعل رجل استثنائي، ولكن أكمل."

واصلتُ قصتي وقلت:

"هناك أيضًا حادثة لا تنسى، تنتمي لتلك الفترة، الكونتيسة سوبول، عمة بعيدة لي، كانت في زيارة لوالدَيّ، وكانت امرأة جميلة، مهيبة وذات ابتسامة جذابة، لكنني كرهتها بسبب سمعتها في العائلة، مع أنها تُعد واحدة من الإمبراطورات الرومانيات، وكان يتسم سلوكي تجاهها بالوقاحة والخبث بشكل محرج. ذهب والداي يومًا إلى البلدة، لذلك قررت عمتي انتهاز غيابهم وتطبيق العدالة علي. اندفعتْ إلى غرفتي مرتدية كازابايكا - سترة مبطنة بالفراء - تليها الطاهية، خادمة المطبخ، والقطة خادمة الغرف التي رفضتها.

أمسكوني دون طرح أية أسئلة، وبالرغم من مقاوماتي العنيفة، تمكنوا من

تقييد يدي وقدمي، شمرّت عمتي عن أكمامها مع ابتسامة شريرة، وبدأت تجلدني بسوط طويل، جلدتني بقوة حتى تدفق الدم، وفي نهاية المطاف، وعلى الرغم من روحي البطولية، صرخت وبكيت وتوسلت الرحمة، فكت بعد ذلك قيدي ولكن كان علي أن أنكب على ركبتي وأشكرها على العقاب وأقبل يديها. الآن فهمت المخبول الغارق بشهوانيته، تحت سوط امرأة جميلة، أدركت حواسي - ولأول مرة - معنى امرأة في معطف الفرو بدت لي كأنها ملكة ساخطة، ومنذ ذلك الحين أصبحت عمتي أكثر امرأة مرغوبة في هذه الأرض.

تقشُّفي وخجلي في حضور امرأة لم يكن إلا شعورًا مفرطًا بالجمال، أصبحت الشهوانية ديني الذاتي، قطعتُ عهدًا على نفسي بأن لا أبدد ثروتها المقدسة على أي شخص عادي، وددت لو أحفظها لامرأة مثالية، لإلهة الحب نفسها لو أمكن ذلك.

ذهبت إلى الجامعة في وقت مبكر جدًا، كانت في العاصمة حيث تعيش عمتي، بدت غرفتي في تلك الفترة كغرفة دكتور فاوست؛ كل شيء متناثر في ارتباك بري، خزائن كبيرة محشوة بالكتب التي اشتريتها من تاجر يهودي في سيرڤانيكا - شارع لليهود في ليمبرج ـ هناك حيث تباع أيضًا الكرات الأرضية، الأطالس، القوارير، الرسوم البيانية الفلكية، هياكل عظمية للحيوانات، جماجم، تماثيل صغيرة لرجال بارزين، كأن ميفوستوفليس سيندفع من خلف المتجر الأخضر في جسد مثقف تائه. درستُ كل شيء بشكل عشوائي، دون أي نظام أو اختيار، الكيمياء، الخيمياء، التاريخ، علم الفلك، الفلسفة، القانون، علم التشريح والأدب... قرأت لهوميروس، فيرجيل، أوسيان، شيلر، غوته، شكسبير، فولتير، موليير، القرآن الكريم، الكوزموس ومذكرات كازانوفا.

وتضخمت الفوضى داخلي يومًا بعد يوم، وخيالي الجامح وشهوانيتي أيضًا. وحملت دائمًا صورة المثل الأعلى في مخيلتي. أحيانا تتراءى لي صورتها بين كتبي المغلفة بالجلد وعظام الموتى، راقدة على فراش من الورود، ويحيط بها كيوبيد من كل جانب، وفي أحيان أخرى تلوح لي في زي الأولمبيين بوجه تمثال فينوس الأبيض الحاد، وأحيانًا تكون بضفائر باللون البني الغني، زرقاء العينين في كازابايكا من المخمل الأحمر، مزينة بفرو القاقم.

في صباح أحد الأيام، عندما انبثقت ابتسامتها الجميلة من ضباب خيالي الذهبي، ذهبتُ لرؤية الكونتيسة سوبول وقد استقبلتني بحرارة وود، أعطتني قبلة عرّضت كل حواسي لاضطراب شديد. على الأرجح إنها تبلغ حوالي أربعين سنة، ولكنها مثل معظم المحظيات الشهيرات، لا زالت جميلة للغاية ومرغوبة، ارتدت كما تفعل دائمًا معطفًا محاطة حوافه بالفراء، هذه المرة كان من المخمل الأخضر والدلق البني، ولكني لا ألحظ شيئًا من الصرامة والقسوة التي لطالما أسعدتني.

وبعيدا عن معاملتي بقسوة، أتاحت لي بشكل طبيعي منحها دليلًا قاطعًا على افتتاني بها، واكتشفت في وقت قريب شهوانيتي الحمقاء وبراءتي، واستمتعت جدًا بمنحي السعادة، في الواقع كنت منتشيا مثل إله صغير، يا لها من نشوة وبهجة أن أركع على ركبتي، وأقبل اليد التي عاقبتني في ما مضى! يا ليديها البديعتين! جميلتان، رقيقتان، بيضاوان وممتلئتان بشكل فاتن، لأقول لك الحقيقة، لقد كنت مغرما بيديها فقط، لهوت بهما، غمرتهما في الفراء المظلم وأخرجتهما أمام الوجه المنبعث من النار، وكنت غير قادر على إشباع عيني منهما."

لاحظتُ أن فاندا تنظر إلى يديها بطريقة لاشعورية وابتسمَت. أكملْت:

"ومن الطريقة التي هيمنت بها شهوانيتي خلال تلك الأيام، يمكنك

رؤية أنني كنت مغرمًا بضربات السوط الشرسة التي تلقيتها من عمتي، وبعد حوالي عامين توددتُ لممثلة شابة فقط لأجل الأدوار التي تلعبها على خشبة المسرح، وبعدها وقعت في حب امرأة محترمة كانت تجسيدا تامًا للفضيلة، ولكنها خانتني في النهاية مع يهودي غني. كما ترين، لأنني تعرضت للخيانة، وتم بيعي من قبل امرأة متأثرة بالمبادئ الصارمة والمُثل العليا، كرهت بكثافة هذا النوع من الشاعرية والفضيلة الوجدانية. أعطيني بدلا عن ذلك امرأة صادقة بما فيه الكفاية لتقول لي: أنا بومبادور، لوكريسيا بورجيا، وأنا على استعداد لعبادتها"

نهضَت ڤاندا، وفتحت النافذة:

"لديك طريقة استثنائية لإثارة خيال الفرد، لقد حفزت أعصابي وتسببت بتسارع نبضات قلبي، إذا كان كل ما تقوله صحيحًا فأنت إذن تضع هالة على الرذيلة، امرأتك المثالية ما هي إلا جرأة مومس عبقرية، أوه، أنت من ذلك النوع من الرجال الذين يعملون على إفساد المرأة"

***

في منتصف الليل كان هناك طَرقٌ على نافذتي، نهضت وفتحتها، فصعقت من المنظر المرعب أمام عيني، ڤينوس في الفراء! تمامًا كما تجلت لي لأول مرة، وقالت:

"لقد اضطربت بسبب قصصك ولم أعد قادرة على إغماض عيني، الآن تعال وأبق معي."

"سآتي حالًا."

عندما دخلتُ غرفتها، كانت ڤاندا جاثمة عند الموقد وقد أشعلت نارًا

صغيرة، وبدأتْ:

"الخريف قادم، الليالي أصبحت باردة بالفعل، أتمنى أن لا تمانع، ولكنني لا أستطيع خلع فرائي حتى تصبح الغرفة دافئة بما فيه الكفاية."

"امانع!! أيتها الشقية أنت تعلمين أن..." رميتُ ذراعي حولها وقبلتها.

"بالطبع أعلم، ولكن لماذا هذا الولع الكبير بالفراء؟"

أجبتها:

"لقد ولدتُ معه، وأظهرتُ علامات الولع به عندما كنت طفلا، بالإضافة إلى أن الفراء عمل على تحفيز جميع الكائنات فائقة التنظيم، وذلك من خلال القوانين العامة والطبيعية، إنه يولد جاذبية مادية قوية وغامضة تجعلكِ تحت سلطة ارتعاش ووخزات خفيفة لا أحد محصن ضدها، أظهر العلم مؤخرًا وجود علاقة ما بين الكهرباء والدفء، ولهذا فإن آثارها على الكائن البشري متشابهة، المناخات المتقدة تنتج أكثر الطبائع عاطفية، والجو الدافئ ينتج أكثرها سموًا، وكذلك الكهرباء، لهذا السبب طالما كان وجود القطط يمارس مثل هذا الجو السحري على أكثر البشر روحانية وحساسية، حركة أذيالهن الطويلة والمقدَّسة، مغناطيسيتها، الفرو الموشى بالكهرباء... لا عجب أنها كانت الحيوانات الأليفة المفضلة للعديد من الرجال مثل: محمد، الكاردينال ريشيلو، كريبلون، روسّوفيلاند."

قالت فاندا: "إذن امرأة ترتدي الفراء ليست أكثر من قطة ضخمة وبطارية كهربائية مشحونة؟"

أجبتها: "بالتأكيد، وهذا هو تفسيري للمعنى الرمزي للفراء كسمة واضحة للسلطة والجمال، في العصور القديمة ادعى الملوك والنبلاء أن الفراء حق مطلق لهم، واستخدمه الرسامون العظام لتزيين الجمال الملكي، لطالما

كان الإطار الأجمل الذي استخدمه رافائيل في الوجه الإلهي في لوحة المرأة الشابة، وتيتيان لم يستخدم لأجل جسد حبيبته الذي يشبه الورد إلا الفراء الأسود"

قالت فاندا: "شكرًا على الخطاب المفيد في الايروتيك، ولكنك لم تخبرني بكل شيء، أليس للفرو ارتباط شخصي بالنسبة لك؟"

قلت: "بالتأكيد، لقد قلت لك مرارًا وتكرارًا إن الألم محاط بجاذبية غريبة تجرني إليه، لا شيء بإمكانه أن يوقظ شغفي أكثر من الطغيان والقسوة، وخصوصا الخيانة في صدر امرأة جميلة، ولا يمكنني أن أتصور هذه المرأة بلا فراء؛ هي المثل الأعلى المستمد من جماليات القبح، هي روح نيرون التي حلّت في جسد فرين."

"لقد فهمت، إنه يعطي الهيمنة والمهابة للمرأة"

"هذا ليس كل شيء" واصلت: "أنتِ تعرفين أنني غارق في شهوانيتي، كل شيء له جذوره في الخيال، ويتغذى هناك، وفي صباي الحساس والناضج حوالي العاشرة من عمري وقعت في يدي كل أساطير الشهداء. أذكر أنني قرأت بنوع من الرعب المشوب بالنشوة كيف ذبلوا في السجون، وعُذِّبوا بالمخلعة، ثُقِبوا بالسهام وتم صبهم بالزفت المغلي، قُدِّموا فرائس للحيوانات البرية، سُمِّروا على الصليب، وعانوا أفظع العذابات بابتسامة تلوح على وجوههم، ومنذ ذلك الحين بدت لي المعاناة والصمود أمام التعذيب الوحشي كبهجة رائعة، خصوصا عندما يكون الجلاد امرأة جميلة، بالنسبة لي، لطالما كانت الشاعرية والشيطانية متحدة بجوهر المرأة، لقد حولتُ هذه الفكرة حرفيا إلى دين حقيقي، شعرت وكأن هناك شيئًا مقدسا في الجنس، في الواقع لقد كان هذا هو الشيء الوحيد المقدس، وأصبحت المرأة وجمالها شيئًا إلهيا؛ لأنها تحمل على عاتقها أهم وظيفة في الوجود، استمرار النوع البشري، تمثل

المرأة تجسيدًا تامًا للطبيعة، هي إيزيس، والرجل هو كاهنها وعبدها. احتمل القسوة في سبيلها برضى تام حين سخرت الطبيعة كل شيء لخدمة أهدافها في وقت مضى، والآن هي لم تعد في حاجة إليه، وبالنسبة له كانت تجسيدًا للوحشية، وحتى الموت بين يديها ليس إلا نعمة خالصة ونوعا من المسرّات الحسية.

لقد حسدتُ الملك غونتر الذي تم تكبيله من قِبل برانهيلد العظيمة في ليلة الزفاف، وحسدت التروبادور الفقير الذي خاطته عشيقته المتقلبة في جلد ذئاب، واصطادته مثل لعبة، والفارس كتيفاد الذي أوقعته الأمازونية شاركا ببراعة في شرك في سهوب براغ، وأخذته لقلعة ديفين، وبعد أن تمتعت به حطمته بعجلة الدولاب."

صرخت فاندا: "مثير للاشمئزاز! أتمنى فعلا أن تقع في يدي امرأة من عرقهم الوحشي، تخيطك في جلد ذئب، وتضعك تحت أسنان الكلاب، أو تمددك على عجلة دولاب، حتما ستفقد شاعريتُك هذه سحرها."

"هل تعتقدين ذلك؟ أنا أشك."

"أنت فعلًا فقدت عقلك."

"ربما، لكن دعيني أكمل. كان لدي ولع شديد بقراءة القصص التي تناولت الوحشية المتطرفة، وحدقت بتلذذ في اللوحات والنقوش التي صورت مثل هذه الطقوس، وقد لاحظت في كل مشهد أن الفراء هو الطابع المميز للجلادات، إن أكثر المستبدات المتعطشات للدماء، اللاتي جلسن على العرش، القاتلات المتقصيات اللاتي قمن بتعذيب الهراطقة، أحرقنهم، ذبحنهم، وكل النساء اللاتي اقتحمن صفحات التاريخ لجمالهن، شبقهن وعنفهن، أمثال ليبوسا، لوكريسيا بورجيا، آغنيس المجرية، الملكة مارغو،

إيزابو، سلطانة روكسلانا، الروسية زاريناز من القرن الماضي، كلهن رأيتهن في الفراء أو في أثواب مزينة بفرو القاقم."

"إذن الفراء الآن توقظ خيالات غريبة لديك؟" قالتها ڤاندا وهي تقوم بثني وشاح السمور بغنج ودلال، بحيث يسطع الفرو الاسود ويتباهى بشكل بديع حول صدرها وذراعيها. "حسنا، كيف تشعر في هذه اللحظة وأنت نصف محطم على عجلة الدولاب؟"

صوبت عينيها الثاقبتين الخضراوين نحوي، وتوهج منهما رضا غريب وساخر. مغلوبًا بالرغبة رميت بنفسي عند أقدامها، وأحطتها بذراعي، وصرخت: "نعم، لقد أيقظتِ أعز أحلامي بعد سبات."

وضعت يدها على مؤخرة عنقي وقالت: "وماهي؟"

دوار عذب استولى علي تحت تأثير هذه اليد الصغيرة والدافئة، ملبيًا الحنان الذي أُهيل علي وباحثا عن النظرة التي أسقطتها على عاتقي من خلال عينيها نصف المغلقتين.

"أن أكون عبدًا لامرأة، امرأة جميلة، وحدها أحب ووحدها أعبد."

قاطعتني ڤاندا بضحك: "والتي بدورها تُسيء معاملتك!"

"نعم التي تقيدني بالأغلال، تجلدني، تطؤني بأقدامها، وفي ذات الوقت تمنح نفسها لرجل آخر."

"والتي تمتلك الصفاقة بعد أن تقودك إلى حافة الجنون بسبب الغيرة، لتواجهك مع خصمك السعيد، تقابله وجها لوجه، وتسلمك لرحمته المطلقه... لم لا؟ ألا تروقك هذه اللوحة النهائية؟"

نظرتُ إلى ڤاندا مرعوبا: " أنت تتجاوزين أحلامي."

"آه، نحن النساء نمتلك خيالًا خصبًا، احذر! إذا وجدت مَثَلك الأعلى ربما ستتم معاملتك بقسوة أكثر مما تتوقع."

هتفتُ دافنا وجهي المحترق في حضنها: "أخشى أنني وجدت مثلي الأعلى بالفعل!"

"ولكن ليس أنا؟" سألتْ فاندا رامية فراءها وهي تثب في الغرفة ضاحكة، كنت لا أزال اسمع صوت ضحكاتها كلما نزلت إلى الطابق السفلي، وعندما وقفت متأملًا في الفناء، كنت لا أزال أسمع دوي ضحكتها التي تعوم في الأسفل مستولية علي.

***

"هل تظن حقًا أنني تجسيد لمثلك الأعلى؟" سألَتْ فاندا بخبث عندما التقينا في الحديقة اليوم، في البداية لم أستطع إيجاد أي جواب، أكثر العواطف المتضاربة تتقاتل داخلي، جلستْ في هذه الأثناء على أحد المقاعد الحجرية وبدأت تلعب بزهرة.

"حسنا إذن، أ ينبغي لي؟" جثوت على ركبتي وأمسكت يديها، وقلت: "أتوسل إليك مرة أخرى، كوني زوجتي، زوجتي الصادقة والمخلصة، وإذا لم تستطيعي فعل هذا، كوني مثلي الأعلى، دون تحفظ ورخاوة."

"أنت تعرف أنني على استعداد لأمنحك يدي حتى نهاية هذه السنة، إذا أثبت أنك الرجل الذي أبحث عنه" أجابت فاندا بجدية وتابعت: "لكنني أعتقد أنك ستكون أكثر امتنانًا لو استجبت لكل تخيلاتك، إذن، أيهما تفضل؟"

"أؤمن أن كل ما تخيلتُه يكمن في طبيعتك."

"أنت تتوهم."

"أعتقد" وتابعت: "أنك تبتهجين بوجود رجل تحت سلطتك المطلقة، وتتمتعين بتعذيبه"

"لا، لا!" هتفت بسرعة ثم تابعت: "أو ربما..." ظلت تفكر "أنا لم أعد أفهم نفسي، لكن لدي اعتراف لك، لقد أفسدت مخيلتي وألهبت دمي وبدأت أحب هذه الأشياء التي تتحدث عنها، الحماسة التي أظهرتها تجاه النساء أمثال بومبادور، كاترين الثانية وكل هؤلاء المخلوقات الأنانيات، الوحشيات والعابثات، حملتني على الاهتزاز، أنا مدفوعة لأصبح مثل هؤلاء النساء، اللاتي بالرغم من طرقهن الشريرة، تم تمجيدهن بخنوع طوال حياتهن، ولا زلن يمارسن قوة خارقة من قبورهن، سوف ينتهي الأمر بجعلي طاغية منمنمة، بومبادور المنزلية."

"حسنا إذن" قلتها بشكل محموم وتابعت: " إذا كان كل هذا متأصلًا فيكِ، اتبعي ميولك الطبيعية، أنا لا أقبل المنتصف، إذا لم تكوني زوجة حقيقة ومخلصة لي، كوني شيطانا إذن"

الهياج، قلة النوم ووجودي قرب امرأة جميلة... كل هذا كان له تأثير الحمى لدي. لم أعد أذكر ما قلته لها، لكن أتذكر أنني قبلت قدميها، ورفعت إحداهما على عنقي، سحّبتها بسرعة ونهضَت غاضبة.

"إذا كنت تحبني سيفرين..." قالت بسرعة وبدا صوتها حادًا وآمرًا: "لا تتكلم أبدًا عن تلك الأشياء أمامي، هل سمعت؟ أبدًا. وإلا قد..." ابتسمَت ثم عادت للجلوس مرة أخرى.

صرخْت: "أنا جاد تمامًا، أنا أعشقك لدرجة أنني على استعداد للمعاناة من اجل قضاء حياتي كلها بالقرب منك"

"سيڤرين، أنا أحذرك مرة أخرى."

"تحذيراتك دون جدوى، عاقرة، افعلي معي ما تريدين، لكن لا تدفعيني بعيدًا عنك"

أجابت: "سيڤرين، أنا شابة عابثة، إنه خطير بالنسبة إليك أن تضع نفسك تحت سلطتي تمامًا، سوف ينتهي بك المطاف كدمية بين يدي، من سيحميكَ بعدها، ومن سيضمن لك أنني لن أسيء استغلال رغبتك المجنونة؟"

"طبعُكِ النبيل"

"السلطة تجعل الفرد يتجرأ أكثر"

صرخت: "كوني كذلك، اسحقيني تحت أقدامك."

أحاطت ڤاندا ذراعيها حول عنقي ونظرت في عيني: "أخشى أنني غير قادرة على ذلك، ولكن سأحاول لأجلك، لأنني أحبك سيڤرين، كما لم أحب رجلًا من قبلك"

***

اليوم، ارتدت فجأة قبعتها وشالها، وسألتني الخروج للتسوق معها، طلبت أن ترى بعض السياط، سياط طويلة بمقبض قصير مثل هذا الذي يستخدم للكلاب.

قال صاحب المتجر لها: "هل هذه مناسبة؟"

"لا، هذه صغيرة جدًا" أجابت ڤاندا وهي تلقي بنظرة جانبية علي "أحتاج إلى أكبر..."

قال التاجر: " لكلب حراسة، أفترض؟"

هتفت: "نعم، من هذا النوع الذي يستخدم في روسيا للعبيد العصاة"

وبعد البحث اختارت أخيرًا السوط، وشعرتُ لحظتها بإحساس زاحف غريب. فأردفَت: "الآن وداعًا سيفرين، هناك بعض الأشياء الأخرى أود شراءها وحدي."

غادرت وأخذت نزهة بعيدًا عنها، وفي طريق العودة رأيت ڤاندا خارجة من عند تاجر للفراء، أومأت لي.

قالت بروح معنوية جيدة: "فكر جيدًا، أنا لم أخف حقيقة أنني مفتونة برصانتك الممزوجة بشهوانيتك، فكرة رؤية هذا الرجل الرصين تحت سلطتي الكاملة، مستلقٍ بنشوة عند قدمي، تثيرني... ولكن هل ستستمر هذه الإثارة؟ المرأة تستطيع أن تبدأ بحب رجل، وبعدها تعامله كعبد، وتنتهي بركله بعيدًا."

"جيد جدًا إذن، اركليني جانبا" أجبتها وتابعت: "عندما تكتفين مني، أود أن أكون عبدك."

"أنا أعي وجود قوى شريرة تكمن في داخلي." قالت ڤاندا بعد خطوات قليلة مشيناها سوية ثم تابعت: " أنت توقظها، وهذا ليس من صالحك، أنت تعرف كيف ترسم المتعة، الوحشية والغطرسة في ألوان متوهجة، ماذا ستفعل لو مددت يدي إليها وجعلت منك ضحيتي الأولى؟ هل تذكر قصة الطاغية ديونيسيوس والرجل الذي اخترع التعذيب بواسطة الثور البرونزي، ولتجربة هذا النوع الجديد من التعذيب، وضع ديونيسيوس المخترع داخله وأغلقه وشواه حتى تفحم حيًا لأجل معرفة ما إذا كان عويله وتأوهاته تشبه حقًا خوار الثور. ربما أنا أنثى ديونيسيوس؟"

صرخت: "كوني كذلك، وكل أحلامي سوف تتحقق"

***

"حبيبي
لا أريد رؤيتك اليوم أو غدًا، ليس قبل مساء يوم بعد غد، كعبدي.

عشيقتك فاندا"

"عبدي" كان تحتها خط للتشديد عليه، قرأتُ الرسالة التي تلقيتها في الصباح الباكر مرة أخرى، شددت السرج على الحمار الصغير، وذهبتُ إلى الجبال، أردت تخدير رغبتي، توقي، مع مشهد جبال الكاربات العظيم. عُدت تعبا، جائعا، عطشان، ومنغمسا في الحب أكثر من أي وقت مضى. غيرت ملابسي، وبعد لحظات من الطرق على بابها...

"ادخل"

دخلتُ، تقف في وسط الغرفة مرتدية ثوبًا من الساتان الأبيض الذي يفيض إلى أسفل جسدها مثل ضوء، وفوقه ترتدي كازابايكا قرمزية، مزينة بفرو القاقم على حوافها، إكليل صغير من الألماس يستريح على شعرها الناعم، تقف وذراعاها مطوية على صدرها ومقطبة حاجبيها.

"فاندا" ركضتُ نحوها وكنت على وشك تطويقها بيدي وتقبيلها، لكنها تراجعت خطوة إلى الوراء وتفحصتني من الأعلى إلى الأسفل.

"عبدا"

"سيدتي!" ركعتُ وقبلت حواف ثوبها.

"هذا أفضل"

"آه كم أنت جميلة!"

"هل أنا أرضيك!؟" انتصبَت أمام المرآة ونظرت إلى نفسها برضا وفخر.

"أنت تقودينني للخراب."

مطت شفتيها بازدراء ونظرت إلى بعينين ضيقتين وساخرتين.

"أعطني السوط." بحثتُ في الغرفة لكنها صرخت: "لا! ابق كما أنت، راكعًا"

ذهبَت إلى الموقد وأخذَت السوط من الحافة، ثم راقبتني بابتسامة أرسلتها مثل همسة في الهواء، ثم لفت ببطء أكمام سترة الفراء.

"امرأة رائعة!" هربَت الكلمات بعيدًا من فمي.

"صمتًا، أيها العبد!"

وفجأة تجهمَت، وبكل وحشية ضربتني بالسوط، وبعد لحظة انحنَت بشفقة وألقت ذراعيها بحنان علي، وسألت وهي تتأرجح بين الخوف والخزي:

"هل أذيتك؟"

أجبتها: "لا، وحتى لو فعلتِ، الآلام التي تصبينها علي هي بهجة محضة، اضربيني مرة أخرى لو كانت تمنحكِ المتعة."

"لكنها لا تمتعني." ومرة أخرى تغلب علي دوار غريب وتوسلت: "اجلديني، اجلديني بلا رحمة."

فاندا لوحت بالسوط وضربتني مرتين، وقالت: "هل اكتفيت الآن؟"

"لا.

"حقًا!!"

"اجلديني، أتوسل إليك، إنني أتمتع."

أجابت: "نعم، لأنك تعرف جيدًا أنني غير جادة، وأنني لا أمتلك قلبا قويا لإيذائك. هذه الألعاب البربرية ضد طبيعتي، لوكنتُ حقًا من ذلك النوع من النساء اللاتي يضربن العبيد ستكون مرعوبًا."

"لا فاندا" قلت "أحبك أكثر من نفسي، أنا لك في الحياة والموت، أنا جاد تمامًا، يمكنك أن تفعلي معي كل ما شئتِ، كل ما تمليه عليك نزواتك."

"سيفرين!"

"اسحقيني بأقدامك" صرخت وقذفت بنفسي أمامها.

قالت فاندا بفارغ الصبر: "أنا أكره كل هذا الاستعراض"

"إذن أسيئي معاملتي على محمل الجد"

صمت مربك قطعته فاندا أخيرًا: "سيفرين، أنا أحذرك للمرة الأخيرة"

توسلتُ إليها: "إذا كنتِ تحبينني، كوني قاسية تجاهي."

"إذا كنتُ أحبك" كررت فاندا ما قلته لها وتابعت: "ممتاز"

تراجعَت إلى الخلف، ونظرت إلي بابتسامة كئيبة وأردفت: "كن عبدي إذن، وأدرِك ماذا يعني أن يتم تسليمك ليدي امرأة."

ركلتني في نفس اللحظة ثم سألت: "هل أعجبك؟"

ثم لوّحت بالسوط وصرخت: "انهض!"

كنت على وشك النهوض.

"ليس بهذه الطريقة." أمرت: "بل على ركبتيك."

أطعتها وبدأتْ تحرك السوط لجلدي، تتابعت الضربات قوية وسريعة على ظهري وذراعي، كل ضربة اخترقت لحمي واحترقت هناك، لكن الآلام أبهجتني؛ لأنها آتية من يدي المرأة التي أحب، المرأة التي أنا على أتم الاستعداد لألقي حياتي عند قدميها.

توقفت وقالت: "لقد بدأت أستمتع بذلك، هذا كاف لليوم، لكنني أشعر بفضول شيطاني، إلى أي مدى يمكن أن تبلغ قوتك، لدي رغبة مروعة في رؤيتك ترتعش تحت سوطي، تعاني وأسمع آهاتك ونحيبك، أود جلدك دون شفقة حتى تصرخ طالبا الرحمة، حتى تفقد حواسك، نعم لقد أيقظت ميولا خطيرة داخلي.... والآن انهض."

أمسكتُ يدها وضغطتها على شفتي،

"يالها من وقاحة!" دفعتني بعيدًا بقدمها وقالت: "اغرب عن وجهي، أيها العبد!"

***

صحوت بعد ليلة محمومة، مليئة بالكوابيس، كان الصبح على وشك الإنبلاج، هل كل ما يحوم في ذاكرتي حقيقي؟ ما الذي عايشته فعلًا وما الذي حلمتُ به؟ من المؤكد أنه تم جلدي، لا أزال أشعرُ بكل ضربة، يمكنني عد الخطوط الحمراء المُحترقة على جسدي.. الآن أنا أعرف كل شيء، لقد كانت هي.. هي من جلدتني.

أصبح الحلم حقيقة، ماذا الآن؟ هل حررني تحقيق تخيلاتي؟ لا، أنا متعب بعض الشيء، أهجتني قسوتها.. آه كم أحبها! أعبدها! لا يمكنني البدء في التعبير عن مشاعري ومدى إخلاصي لها.. يا لها من نعمة أن أكون عبدها!

***

دعتني من شرفة منزلها، أسرعتُ إلى الطابق العلوي ووجدتها تقف على العتبة وتعقد يديها بطريقة وديّة. بينما كنت أعانقها وهي تدفن رأسها في صدري قالت: "أشعر بالخجل من نفسي".

"لماذا؟"

قالت بصوت مرتجف: "أرجوك حاول أن تنسى المشهد المريع الذي حدث البارحة، لقد حققت رغباتك المجنونة والآن دعنا نكن عقلانيين، يجب أن نكون سعداء ونحب بعضنا، وخلال سنة فقط سأكون زوجتك"

صرخت: "أنا عبدك يا مولاتي."

قاطعتني ڤاندا: "لا تقل لي كلمة أخرى عن العبودية، القسوة أو السوط.. الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أمنحك إياه هو الفراء، تعال وساعدني في ارتدائه."

***

انطلق كيوبيد من الساعة البرونزية الصغيرة، مشيرًا إلى منتصف الليل، نهضتُ وأردت المغادرة، لم تقل ڤاندا شيئًا، عانقتني وسحبتني مرة أخرى على الأريكة، وبدأت في تقبيلي من جديد، وكانت هذه اللغة الصامتة مفهومة

جدًا، مقنعة جدًا... قالت لي أكثر مما تجرأتُ على فهمه، تغلب الفتور على كل جزء منها، يا للنعومة الشهوانية في عينيها نصف المغمضتين، في طوفان شعرها الأحمر الذي يتلألأ على وجهها الأبيض، في الساتان الأحمر والأبيض الذي يضج مع كل حركة، في الفرو المهمل الذي يداعب كتفيها، مثل حركة أفعوانية!.

"أتوسل إليكِ..." تلعثمتُ: "لكن سوف تغضبين..."

همست لي: "افعل معي ما شئت، أنا أنتمي إليك"

"إذن اسحقيني، أتوسل إليك أو سأجن"

هتفت ڤاندا: "ألم أحرِّم عليك... لكن لا سبيل هناك لتقويمك"

"آه، إني واقع في الحب بشكل رهيب." وقعتُ على ركبتيّ ودفنت وجهي المتقد في حضنها.

"أنا حقًا أعتقد" قالت ڤاندا بإمعان "أن جنونك ليس إلا شهوانية شيطانية غير مشبعة، إن جانبنا الوحشي هو ما يولد هذه الأمراض، ولو كنتَ أقل فضيلة فستصبح حتما عاقلا بشكل مثالي."

تمتمت: " اجعليني عاقلا إذن."

مررت يديّ خلال شعرها وعلى الفراء البراق الذي يرتفع وينخفض على صدرها مثل موجة مقمرة، لقد قادت كل حواسي للارتباك.

قبلتها، لا هي التي قبلتني بوحشية، بلا رحمة، كأنها تريد افتراسي، كأنني أهذي، وفقدت منذ زمن طويل عقلانيتي، لاهثًا ساعيا لتحرير نفسي من ذراعيها.

سألت ڤاندا: "ما المشكلة؟"

"أنا أعاني بشكل مريع."

"أنت تعاني؟" وانفجرت بضحكة لعوب

تنهدتُ وقلت: "أتضحكين؟ ليس لديك أي فكرة..."

وأصبحت جدية فجأة، أمسكت رأسي بيديها وحشرتني في صدرها.

تلعثمت: "ڤاندا،"

"أنت تتمتع حقًا بالمعاناة." قالتها وضحكت مرة أخرى "ولكن انتظر، يجب أن أدفعك لحواسك."

هتفتُ: "أنا لن أسأل ما إذا كنت تريدين الانتماء لي إلى الأبد أو للحظة وجيزة فقط، أريد استنزاف سعادتي لأقصى حد، أنت لي في هذه اللحظة وأفضل أن أفقدك بدلا من ألا أمتلكك أبدًا."

"أنت صرت غير منطقي الآن" قالتها وقبلتني مرة أخرى بشفتيها الوحشيتين. انتزعت الفرو والدانتيل، ارتفع صدرها العاري أمام صدري، وعندها فقدت الوعي.

أول شيء أتذكره هي اللحظة التي رأيت الدم يتقاطر من يدي، وسألتها بفتور: "هل خدشتِني؟"

"لا، أعتقد أنني عضضتك."

***

من الغريب أن كل علاقة غرامية تفترض وجهًا مختلفًا كلما ظهر شخص جديد في المشهد. قضينا أيامًا رائعة معا، زرنا الجبال والبحيرات، قرأنا معًا وأنهيت بورتريه ڤاندا، لكم أحببنا بعضنا البعض! وكم هي جميلة ابتسامة وجهها!

ثم وفي أحد الأيام وصلت صديقة لها، امرأة مطلقة أكبر منها سنّا بعض الشيء، أكثر خبرة وأقل تدقيقا من ڤاندا، لقد أصبح تأثيرها بالفعل ملحوظا في كل مسألة وفي كل اتجاه، ڤاندا عبوسة دائمًا وتظهر نوعا من نفاذ الصبر معي.

ألم تعد تحبّني؟

***

استمرت هذه القيود التي لا تحتمل لمدة أسبوعين، صديقتها تعيش معها ولا يمكن أن نكون وحدنا مطلقا، تحيطُ دائرة من الرجال المعجبين بالشابتين، ورغم حدتي وسوداويتي فأنا ألعب دور الحبيب العبثي، ڤاندا تعاملني مثل شخص غريب. اليوم وحينما كنّا نمشي خارجا، انزلقت خلف الآخرين لانتظاري، أدركت أنها فعلت ذلك عن قصد وفرحت، ولكن ماذا قالت لي؟

"صديقتي لا تفهم لماذا أحبك؛ إنها لا تجدك وسيمًا أو جذابًا، إنها تحدثني منذ الصباح وحتى الليل عن بريق الحياة العابثة في العاصمة، ملمحة إلى الطموحات التي ربما أحققها، المزايا التي قد أتمتع بها، الخُطَّاب المميزين الذين قد أجذبهم، ولكن ما فائدة كل هذا منذ أصبحتّ أنت الوحيد الذي أحب؟"

لوهلة حبست كلماتها أنفاسي، وقلت: "بحق الله ڤاندا! ليس لدي أي رغبة في الوقوف في طريق سعادتك، لا تفكري فيّ"

رفعتُ قبعتي لها سامحا لها بالتقدم إلى الأمام، نظرت إلي مدهوشة لكنها لم تنطق بكلمة واحدة.

وفي طريق العودة، وجدت نفسي بالصدفة قريبًا منها، ضغطت يدي بمكر ونظرت إلي بنظرة دافئة ومشرقة، ملمحة إلى أن كل العذابات في الأيام الماضية ستُنسى، وكل جراحاتي ستُشفى، الآن أنا أعلم كم أحبها.

***

اليوم قالت لي فاندا: "صديقتي تشتكي منك"

"لربما شعرت أنني أحتقرها."

"ولكن لماذا تحتقرها أيها الرجل الأحمق؟" هتفت فاندا وهي تسحب أذني بكلتَي يديها.

قلت: "لأنها منافقة، أنا لا أحترم إلا المرأة الفاضلة أو التي تعيش فقط لأجل المتعة."

"مثلي على سبيل المثال." أجابت فاندا بهزلية، وتابعت: "كما ترى يا طفلي، يمكن للنساء أن يفعلن ذلك في حالات نادرة، إنهن لا يستطعن أن يكن محض حسّيات أو روحانيات حُرات مثل الرجال، يتسم حبهن بأنه دائمًا مزيج بين الحسي والروحاني، يرغب قلب المرأة في تصفيد الرجل بشكل دائم في في ذات الواقت التي تكون هي نفسها خاضعة لرغبتها في التغيير، والنتيجة هي الصراع، الكذب والخداع يجتاح حياتها، عادة ما يكون ضد رغبتها، وتفسد شخصيتها بأكملها."

قلت: "من المؤكد أن هذا صحيح، الطابع المتسامي التي أرادت المرأة دمغه في الحب قادها إلى الخداع."

"ولكن هذه هي الطريقة التي يسير بها العالم." قاطعتني فاندا، وتابعت:

"انظر هذه المرأة، لديها حبيب في لفيف، ووجدت معجبًا جديدًا هنا، إنها تخدع كليهما، والآن تم تقديرها واحترامها من قبل المجتمع."

هتفت: "لا يهمني ذلك، ولكن فلتدعك وشأنك خارج كل هذا، إنها تعاملك كسلعة."

سألت فاندا: "وهل هناك أي ضرر من هذا؟ كل امرأة لديها الغريزة أو الرغبة في الحصول على المزايا من سحرها، إنه لشيء رائع أن تمنح نفسها دون حب أو متعة، لأنه لو فعلتها بدم بارد فستجني الربح على أكمل وجه."

"فاندا ماذا تقولين؟"

"لم لا؟ وضع هذه الكلمات في رأسك دائمًا، لا تشعر بالأمان أبدًا مع امرأة تحبها، لأن هناك فخاخًا في طبيعة المرأة أكثر مما تتخيل، إنهن لسن جيدات أو سيئات، طابعهن بلا لون، وإن أفضل امرأة يمكن أن تتمرغ في الوحل، وقد ترتفع الأسوأ بشكل غير متوقع إلى العظمة والخير لتذم أولئك الذين يحتقرونها.. لا وجود لامرأة خيرة أو سيئة، ولكنها في أي لحظة قادرة على احتواء الأفكار، الأفعال والمشاعر الأكثر شيطانية، مثلما هي قادرة على أكثرها ألوهية، أكثرها قذارة وأطهرها.. وعلى الرغم من كل هذا التقدم الحضاري، فإن المرأة بقيت كما هي منذ اليوم الذي فيه شكلتها يد الطبيعة، مثل حيوان بري، إما مخلصة أو خائنة، رقيقة أو قاسية، تسير وفقًا للنزعة التي تهيمن عليها تلك اللحظة، وعلى مر التاريخ فالحضارة الرصينة هي التي تنتج الطابع الأخلاقي، الرجل حتى عندما يكون أنانيًا أو شريرًا، فهو يعيش وفقًا للمبادئ، لكن المرأة لا تخضع لأي شيء إلا نزعاتها. لا تنس ذلك أبدًا، وأبدًا لا تكن مطمئنا للمرأة التي تحب."

***

رحلت صديقته، وها أنا وحدي معها مرة أخرى، يبدو أنها وفرت كل الحب الذي تكونه في الأسابيع الماضية لهذا المساء، لم تكن مطلقًا بهذا اللطف والتقرب والرقة..

يا لها من نعمة التشبث بشفتيها، والإغماءة بين ذراعيها! وبعد ذلك، وهي تستلقي على صدري، مرتاحة وملكي تمامًا! ونذوب في نشوة أعيننا المخمورة! لا يمكنني التصديق حتى الآن، ان هذه المرأة هي ملكي، تمامًا ملكي!..

"هي محقة في نقطة واحدة" بدأتُ فاندا دون أن تتحرك أو تفتح عينيها حتى، كما لو أنها نائمة.

"من هي؟" وبقيت صامتة، فنطقتُ مرة أخرى: "صديقتك؟"

أومأت برأسها: "نعم، إنها على حق، أنت لست رجلًا، أنت روح رومانسية، فارس ساحر، وأنت بالتأكيد ستكون عبدًا لا يقدر بثمن، لكنني لا يمكن أن أتخيلك زوجًا لي." كنتُ مرعوبًا، وأكملَت: "ما المشكلة؟ أنت ترتجف؟"

"أرتجف لفكرة أنني قد أخسرك في أية لحظة"

"تعال الآن، هل أنت تعيس هذه اللحظة بسبب ذلك؟ هل معرفة أنني كنت أنتمي لآخرين قبلك، وأن آخرين بعدك سيمتلكون جسدي يسلبك شيئًا من أفراحك؟ وهل ستكون سعادتك أقل لو كان رجل آخر يشاركك السعادة؟"

"فاندا!"

"اسمعني" وتابعَت: "ربما يكون هذا حلًا، وأنت لن تفقدني مطلقًا، أنا مولعة بك ونحن متناغمان، بالإضافة إلى أنني أود العيش معك دائمًا، لو كنت..."

صرختُ: "ماذا يدور في ذهنك، أنت ترعبينني؟"

"هل ستكرهني؟"

"على العكس تمامًا"

رفعت ڤاندا نفسها مستندة على ذراعها اليسرى وقالت: "أعتقد، للاحتفاظ برجل بشكل دائم يجب، أن على المرأة أن لا تكون وفية له، قل لي هل هناك امرأة مخلصة قد عُشقت كما الهيتايرا؟"

"صحيح، هنالك ألم في خيانة المرأة يمنح شعورا فوقيا، أعلى من النشوة"

سألت ڤاندا بسرعة: "وبالنسبة لك أيضًا؟"

"وبالنسبة لي أيضًا"

هتفت ساخرة: "ماذا لو منحتك هذه المتعة؟"

أجبتها: "سوف أعاني من سكرات رهيبة لكنني سأعشقك أكثر، يجب أن تكوني صادقة كليا معي، ويجب أن تمتلكي العظمة الشيطانية لتقولي لي: لن أحب أحدًا غيرك، ولكنني سأمنح خيراتي لكل من يعجبني."

هزت ڤاندا رأسها: "الكذب نقيض طبيعتي، ولكن أي الرجال ذلك الذي يمتلك الشجاعة الكافية لتحمل عبئ الحقيقة؟ إذا كنت سأقول لك إن هذه الشهوانية البهيجة، هذه الوثنية هي مَثلي الأعلى، هل لديك القوة الكافية لتتحمل ذلك؟"

"بالتأكيد، أنا على استعداد لتحمل أي شيء حتى لا أفقدك."

"ولكن سيفرين" ...

قلت: "نعم، إنها الحقيقة... ولهذا..."

"لهذا السبب أنت تحب..." ابتسمت بخبث وتابعت: "هل خمنت؟"

صرخت: "أحب أن أكون عبدك، ملكيتك المطلقة، دون إرادة، والذي لن يشكل عبئًا عليك ويمكنك التخلص مني متى شئتِ، بينما تشربين من كأس الحياة، مستلقية في أحضان الترف، ومستمتعة بالسعادة الهادئة والمحبة الأولمبية، أريد أن أكون في تلك اللحظة خادمك الذي يساعدك - وهو على ركبتيه - في ارتداء وخلع حذائك."

"ربما تكون محقًا بعد كل هذا" وتابعت: "فقط لكونك عبدي هل يمكنك تحمل حبي للآخرين؟ بالإضافة إلى أن حرية التمتع بالعالم القديم لا يمكن تصورها دون عبودية.. آه إنه يعطي المرء شعورًا بالألوهية، لكم يشعر الفرد أنه إله حين رؤية رجل مرتعش راكع أمامه، أريد عبدًا، هل تسمعني سيفرين؟"

"ألست عبدك؟"

"اسمعني" قالتها قائدا بحماس مستولية على يدي: "أريد أن أكون لك ما دمت أحبك"

"لشهر؟"

"ربما اثنين حتى"

"وبعدها؟"

"بعدها ستصبح عبدي."

"ماذا عنكِ؟"

أجابت فاندا: "يا له من سؤال! أنا إلهة أحيانا أتنزل من ارتفاعاتي الأولمبية لأزورك سرًا، بهدوء، بهدوء جدًا، ولكن ماذا يعني كل هذا؟"

استراح رأسها في يديها، وتلك النظرات تتلاشى في المسافة بيننا.. يا إلهي! وتابعت: "الوهم الذهبي الذي لن يتحقق أبدًا." تغلبت عليها كآبة غريبة، أسيّ لم أره على وجهها مطلقا.

بادرت: "لماذا لا يمكن تحقيقه؟"

"لأن العبودية لم تعد موجودة الآن."

قلت بلهفة: "إذن لسوف نذهب إلى بلد حيث لا تزال موجودة، إلى الشرق، إلى تركيا ربما"

قالت وعيناها تتوهجان: "هل تريد ذلك حقًا سيڤرين، بكل جدية؟"

"نعم أريد أن أكون عبدك بكل جدية، أريد أن تتغلب سلطتك علي لتكون كما القانون، أريد أن تكون حياتي بين يديك، لا أريد أي شيء يمكنه حمايتي أو إنقاذي منك. آه يا لها من بهجة عندما أشعر أني معتمد كليا على إرادتك المطلقة، نزواتك، أكون بين يديك ورهن إشارتك، ثم يا لها من نعمة! عندما تظهر الإلهة الرأفة، ويُسمح للعبد بتقبيل الشفاه التي تعتمد حياته وموته عليها." ركعتُ وانحنى جبيني المحترق على ركبتيها.

"سيڤرين أنت محموم." قالتها فاندا بإشفاق وتابعت: "هل تحبّني حقًا هكذا إلى ما لانهاية؟" ضغطتني إلى صدرها وغطتني بالقبلات. كان صوتها مرتجفا عندما سألت: "هل تريد ذلك حقًا؟"

صرخت والمشاعر تتفجر مني تباعا: "أقسم لك الآن بالإله، بشرفي، أنني ينبغي أن أكون عبدك، أينما وكلما تمنيتِ، وقتما أمرتِ."

"وإذا عاملتك كما تريد وأخذتُ بكلمتك؟"

"فعلي ما تشائين!"

"يا لها من فكرة جذابة! الرجل الذي يعبدني والذي أحبه من أعماق قلبي، إنه في تمام متكل على إرادتي وأهوائي، ملكيتي، عبدي بينما أنا..." نظرت إلى وجهي بغرابة وتابعت: "ستكون أنت الملام لو عبثت معك كليا، أعتقد أنك خائف مني بالفعل، ولكنك قد أقسمت."

"وسأبقي على قسمي."

"سأرى ذلك، الفكرة تجرني بشدة لدرجة أنني لم أعد أستطع إبقاءها في نطاق الوهم أو التخيلات، يجب أن تكون عبدي، وسأحاول أن أكون ڤينوس في الفراء."

***

لقد اعتقدت في النهاية أنني عرفت هذه المرأة، فهمتها، والآن أرى أنني يجب أن أبدأ من جديد. قابلت نظرياتي بتقزز مطلق منذ فترة قريبة، والآن بأي حماس يا إلهي تريد تنفيذها! لقد أعدَّت عقدًا وفقًا لما ألزمتُه على نفسي، وقد أعطيتها كلمة الشرف، ووافقتُ تحت القسم على أن أكون عبدها طالما ترغب بذلك.

يدها حول عنقي، وتقرأ علي هذه الوثيقة التي لا تصدق، مع قبلة تتخلل نهاية كل جملة.

قلتُ مغيظا لها: "ولكن كل الالتزامات المنصوص عليها في العقد هي من جانبي أنا"

أجابت بمنتهى الجدية: "بالطبع، أنت لم تعد حبيبي لهذا أنا معفية من جميع الالتزامات والواجبات تجاهك، يجب أن ترى فضلي كالخير الخالص، لم يعد لديك أي حقوق، ولا يمكنكِ أن تدعي أي حق، لا حدود لسلطتي عليك، تذكر أنك الآن أفضل قليلا من كلب أو شيء جامد، أنت ملكي، اللعبة التي سأكسرها إلى شظايا متناثرة ما منحني ذلك المتعة، أنت نكرة، لا شيء، أنا كل شيء، هل فهمت هذا؟" وضحكَت وقبلتني مرة أخرى وبعدها بقليل رجفة باردة تنفض جسدي.

سألتها: "هل تسمحين لي ببعض الشروط؟"

" شروط!!" قالتها وهي تعقد حاجبيها، وتابعت: "آه! أنت خائف بالفعل، أو ربما ندمت على قرارك، ولكن فات الأوان الآن، لقد أقسمت، لدي كلمتك ولكن دعني أسمع ما تريده"

"قبل كل شيء أود أن يتم تضمين هذه الشروط في العقد المبرم بيننا، الأول هو أنك لن تفصلي نفسك تمامًا عني، والثاني لا تجعليني أبدًا تحت رحمة أحد معجبيك"...

"ولكن سيڤرين..." هتفت ڤاندا بصوت متخم بالعاطفة، والدموع تملأ عينيها وتابعت: "كيف يمكنك أن تتخيل... أنت، الرجل الذي يحبني تمامًا، الرجل الذي وضع نفسه تحت سلطتي تمامًا.. أنني يمكن أن..."

"لا، لا!" قلت مغطيًا يديها بالقبلات وتابعت: "أنا لا أصدق أنك قد تجلبين العار لي، اغفري لي هذه اللحظة الدنئية."

ابتسمت ڤاندا بسعادة، حانيةً رأسها، وبدت كما لو كانت تتفكر ثم همست بشقاوة: "لقد نسيت شيئًا، أهم شيء"

"شرط؟"

هتفت فاندا: "نعم، إنني يجب أن لا أظهر إلا بالغراء، لكنني أعدك أني سأفعل ذلك على أية حال، لأنه يعطيني شعورًا بالاستبداد، أود أن أكون قاسية جدًا تجاهك، هل فهمت؟"

سألت: "هل يجب أن أوقع العقد؟"

"ليس بعد، يجب إضافة شروطك أولًا، والتوقيع الحقيقي لن يحدث قبل الوقت والمكان المناسب."

"في القسطنطينية؟"

"لا، لقد فكرت في الأمر مطولًا، ما هي قيمة امتلاك عبد في بلد تشيع فيه ممارسة العبودية؟ ما أريده هو امتلاك عبد لا يشاركني فيه أحد، هنا في منطقتنا المتحضرة الواعية، ثم ستنتمي لي، لا بالقانون، لا بالحق والسلطة ولكن بسبب جمالي ووجودي بأكمله، هذه الفكرة تجذبني، ولكن دعنا نذهب إلى مكان حيث لا يعرفنا فيه أحد وحيث يمكنك أن تظهر أمام العالم بأكمله كخادمي دونما حرج، ربما إلى إيطاليا، إلى روما أو نابولي."

***

كنّا نجلس على متكأ فاندا العثماني، ترتدي سترة من فرو القاقم، وشعرها طليق وبري يشعرك كما لو أنه عرف أسد، تشبثت بشفتي، وانتزعت روحي من جسدي، رأسي يدور، وبدأ دمي يفور، وقلبي ينبض بعنف أمامها.

"أريد وضع نفسي بين يديكِ فاندا" صرختُ فجأة، تستولي علي موجة من العاطفة وحينها لا أفكر بشكل واضح أو أقرر بحرية "أريد وضع نفسي بين يديك، تحت رحمتك، تحت إرادتك.. أنا لك بالخير أو بالشر، دون أي شروط أو حدود لسلطتك."

ترنحتُ من الأريكة حين قلت هذه الكلمات، وقعت عند قدميها وأنا أنظر بعينين مخدرتين، منتشيتين.

همستْ: "ما أوسمك الآن! بعينيك نصف المغلقتين بالنشوة، أنت تملؤني بهجة، تجعلني سعيدًا، كم هي رائعة نظرتك هذه حتى لو كنت قد تعرضت للضرب حتى الموت، أو كنت في كرب شديد! لديك عينا شهيد سيفرين."

***

في بعض الأحيان أجده مزعجًا أن أكون تحت رحمة امرأة، مع كل تلك السلطة التي في يديها، ماذا لو أساءت لعاطفتي؟ حسنًا إذن، أود تجربة كل ما شغل مخيلتي منذ طفولتي، كل ما أعطاني شعورًا مغويًا بالرعب.

يا له من توجس بلا معنى! إنها تلعب لعبة جائرة معي لا أكثر من ذلك.

هي تحبّني طبعًا، وهي طيبة جدًا، نبيلة جدًا، غير قادرة على الخيانة ولكن كل شيء في يديها، لو كانت تريد خيانتي فبإمكانها ذلك، يا لإغراء هذا الشك، هذا الخوف!

الآن أنا أفهم مانون ليسكو والفارس المسكين، الذي حتى وهو في المقطرة -آلة خشبية للتعذيب - لا يزال يحب عشيقته الخائنة، الحب لا يعرف الفضيلة ولا الجدارة، عندما نحب فنحن نغفر وننسى كل شيء لأنه لا خيار لنا، إنه ليس حكمنا الذي يقودنا، إنه ليس المزايا ولا الأخطاء التي اكتشفناها في محبوبنا، والتي أججت عواطفنا أو جعلتنا ننسحب بكل رعب، نحن مدفوعون بقوى غامضة ولينة، قوى تفصلنا عن الإرادة والمنطق، وننجرف بلا تفكير وبلا نهاية.

***

عندما كنّا في البلدة اليوم، ظهر أمير روسي للمرة الأولى في المنتزه، جسده الرياضي، ملامحه المتقنة، وثيابه الرائعة أثارت كل اهتمام.

والسيدات خصوصًا فغرن أفواههن تجاه هذا الحيوان البري الوسيم، لكن الأمير ذهب في طريقه بحزن شديد دون الالتفات لأي أحد، وكان يرافقه خادمان، أحدهما زنجي، مغطى تمامًا بالساتان الأحمر، والآخر شركسي في كامل زيه البراق. وفجأة لاحظ ڤاندا وعلق عينيه المُخترِقتين عليها، حتى أنه استدار عندما مرت، وبقي منتصبا يتابعها بنظراته.

وهي قد التهمته بعينيها الخضراوين اللامعتين، وبدت مستعدة لفعل أي شيء للقائه مرة أخرى.

شعرتُ بغصة في حلقي عندما شاهدت الغنج الماكر وهي تسير أمامه، تتحرك وتنظر إليه.

أشرت إلى هذا الموضوع عندما كنّا في البيت، عقدت حاجبيها وقالت لي: "ماذا تريد؟ الأمير رجل قد يكون منجذبا إلي، في الحقيقة، إذا جاز لي أن أقول ذلك، إنه أبهرني، بعد كل شيء أنا حرة في فعل ما أريد"

سألتها بصوت مرتجف: "ألم تعودي تحبينني؟"

أجابت: "أنا لا أحب سواك، ولكن يجب أن أجعل الأمير يتودد إلي"

"ڤاندا!"

سألت بهدوء: "ألستَ عبدي؟ ألستُ أنا ڤينوس؟ ڤينوس القاسية في الفراء الشمالية؟"

كنتُ صامتًا، شعرت أنني انسحقت حرفيا من كلماتها، نظرتها الباردة

اخترقت قلبي مثل خنجر.

"أريدك أن تجد لي على الفور اسم الأمير، مكان إقامته، وكل شيء يمكنك أن تعرفه حوله، هل فهمت؟"

"ولكن..."

"لا اعتراضات، امتثل لأوامري!" صرخت بصرامة لم أكن أعتقد أنها قادرة عليها، وتابعت: "لا تجرؤ على رؤيتي مرة أخرى حتى تتمكن من الإجابة على كل أسئلتي."

***

لم أستطع الحصول على المعلومات المطلوبة لثاندا حتى الظهر، جعلتني أقف أمامها مثل خادم، بينما اتكأت على المقعد، تنصت إلي بابتسامة، ثم أومأت برأسها وبدت راضية.

أمرتني بإيجاز: "أحضر لي مسند القدمين."

أطعتها، وبقيت راكعًا بعد أن أحضرته، وأراحت قدميها عليه.

سألتُ قانطًا بعد صمت قصير: "كيف سينتهي كل هذا؟"

ضحكت ثاندا وأجابت: "لماذا؟ لم يبدأ شيء بعد."

قلتُ مجروحًا: "أنتِ أكثر قسوة مما تصورت."

"سيثرين، أنا لم أفعل شيئًا حتى الآن، وأنت بالفعل تقول الآن إنني بلا قلب! ما الذي سيحدث عندما أحقق رغباتك وأبادر بحياة بهيجة محاطة بدائرة من المعجبين، عندما أشبع مُلك العليا، أسحقك تحت أقدامي

وأجلدك بالسوط؟"

"أنت تأخذين تخيلاتي على محمل الجد."

"على محمل الجد؟ عندما أشرع في شيء لا مجال هنا للتهريج.. تعلم أنني أبغض كل الاستعراضات والميلودراما، ألم ترغب في ذلك؟ أكانت فكرتي أم فكرتك؟ هل أنا التي أقنعتك أم أنت الذي أجبرتني؟ أنا آخذ الأمور على محمل الجد الآن."

قلت لها برقة: "ڤاندا، استمعي بهدوء إلي، نحن نحب بعضنا بشكل لانهائي، ونحن سعداء للغاية، هل ستضحين بمستقبلنا بأكمله من أجل نزوة؟"

"هذه ليست نزوة"

فتساءلت خائفًا: "ما هذه إذن؟"

أجابت بتمعن وتفكر: "شيء كان كامنا داخلي، لربما لم ير النور مطلقًا لو لم تستدعه للحياة أنت، لقد غذيت هذه الميول داخلي، الآن أصبح هذا اندفاعًا قويًا، يملأ كياني، وأنا استمتع بهذا الحال بشدة، والآن تريد التراجع، قل لي هل أنت رجل؟"

"عزيزتي العذبة ڤاندا!" وبدأتُ بملاطفتها وتقبيلها.

"دعني، أنت لست رجلًا"

"وما تكونين أنتِ؟" سألتها مشتعلا من شدة الغضب.

قالت: "أنا أنانية، أنت تعرف هذا، أنا لست مثلك، قوية في تخيلاتي ضعيفة في تنفيذها. ولكن عندما يكون في رأسي تصور لفعل شيء ما، فأنا أقدم على فعله من البداية وحتى النهاية، وكلما واجهت مقاومة أو معارضة

أكون أكثر تصميمًا.. دعني وشأني!"

دفعتني بعيدًا ونهضت.

"فاندا!" نهضتُ مثلها ووقفت مواجهًا لها.

"الآن أنت تعرف ما أكون" وتابعت: "أحذِّرك مرة أخرى، لا يزال لديك الخيار، أنا لا أرغمك على أن تكون عبدي."

"فاندا!" هتفت والدموع تملأ عيني ثم قلت: "ألا تعلمين كم أحبك؟"

تجهمت بازدراء.

" أنت مخطئة، أنت تجعلين نفسك أكثر شرًا مما أنتِ فعلًا، أنت بعيدة كل البعد عن الخير، وبعيدة عن النبل بطبيعتك..."

قاطعتني بعنف: "ماذا تعرف عن طبيعتي؟ سوف تعرفني على حقيقتي سيفرين."

"فاندا!"

"اتخذ قرارك، هل ستخضع دون قيود أو شروط؟"

"وإذا رفضت؟"

"إذن..."

جاءت أمامي، باردةً وساخرة، ووقفت ويداها معقودتان على صدرها، ابتسامة شريرة تلوح من شفتيها؛ لقد كانت في الواقع امرأة أحلامي المستبدة، كانت ملامحها قاسية، ولا شيء في عينيها يعد باللطف أو الرحمة.

وفي النهاية أردفت: "حسنا إذن"

صرخت: "أنت غاضبة، سوف تعاقبينني."

"أوه لا، يجب أن أسمح لك بالرحيل، أنت حر، أنا لن أتمسك بك"

"فاندا، أنا الذي أحبك..."

هتفت بازدراء: "نعم أنت يا سيدي العزيز، أنت الذي تعبدني، وأنت الجبان أيضًا، الكاذب والخائن بقسمه، ابتعد عن ناظري هيا!"

"فاندا!"

"حقير!"

تصاعد الدم إلى رأسي ورميت نفسي عند قدميها منفجرًا بالبكاء.

"دموع أيضًا!" بدأت بالضحك، آه يا لهذه الضحكة المخيفة "اتركني، لا أريد أن أراك مرة أخرى."

صرختُ مشتعلا: "آه يا إلهي! سأفعل كل ما تأمرين به، سأكون عبدك، مجرد كائن يمكنك أن تفعلي به ما تشائين، فقط لا ترسليني بعيدًا، لا يمكنني تحمل ذلك، لا يمكنني العيش بدونك."

تشبثتُ بركبتيها مغطيًا يديها بالقبلات.

"نعم، يجب أن تكون عبدي وتذوق طعم السوط، لأنك لست رجلًا." قالتها بهدوء. ما جرحني أنها لم تكن غاضبة أو مضطربة، تكلمت بكل رباطة جأش، بنبرة صوت واحدة.

"أنا أعرفك الآن، أعرف طبيعة الكلاب الكامنة فيك، أنت تعشق كل من يسحقك تحت أقدامه، وأكثر من ذلك سوء المعاملة، أنا أعرفك ويجب أن تأتي أنت الآن لاكتشافي."

كانت تسير صعودًا وهبوطًا بخطوات طويلة، بينما بقيت مسحوقًا على ركبتي، رأسي منحنٍ ووجهي يفيض بالدموع.

نظرت إلي بكآبة ثم اتقدت عيناها فجأة بوهج داخلي، جذبتني إلى صدرها بمفة دموعي بقبلاتها.

***

الجانب الهزلي في قصتي أنني أستطيع الهروب ولكنني لا أريد.. أنا على استعداد لتحمل كل شيء لو هدّدَت بإخلاء سبيلي.

***

هنالك شيء غريب في اللطف الذي تعاملني به.

إلا إذا كانت تنوي استخدام السوط مرة أخرى!

أبدو مثل فأر أسير لدى قطة جميلة تلاعبه بابتهاج، هي مستعدة للانقضاض وتمزيقه إلى أشلاء في أية لحظة، وقلب الفأرة في صدري يهدد بالانفجار.

ما هي نواياها؟ ماذا تضمر لي؟

***

يبدو أنها نسيت وضعي كعبد وأمرَ العقد تمامًا، أو ربما كانت مجرد نزوة وتخلت تمامًا عن خططها حالما خضعت لإرادتها المتجبرة ولم أعد أقاومها؟ ما ألطفها معي الآن! يا لها من عذبة ومحبة! نحن نقضي أياما سعيدة ومباركة.

***

اليوم سألتني قراءة مشهد بين فاوست وميفوستوفليس، والذي يظهر الأخير فيه كعالم جوالة، بدت وكأنها راضية بغرابة ولم تستطع إبعاد ناظريها عني.

أردفت حينما انتهيت: " أنا لا أفهم، كيف لرجل أن يعبر عن مثل هذه الأفكار العظيمة والجميلة بمثل هذا الوضوح، بشكل مقتضب وعقلاني، ولكنه في الوقت ذاته يكون رومانتيكيا وغارقا في شهوانيته."

سألت مقبِّلًا يدها: "هل استمتعتِ بذلك؟"

داعبت جبيني بمودة وتمتمت: "أنا أحبك سيثرين، لا يمكنني تصديق أنني أستطيع أن أحب رجلا أكثر منك، دعنا نكن عقلانيين، ماذا تقول؟"

بدلا من الرد عليها طوقتها بذراعي، قلبي كان مملوءا بحب عميق وتوق غامض، تبللت عيناي وسقط مسيل الدموع على يدها.

وهتفت: "كيف يمكنك أن تبكي! أي طفل أنت!"

***

عندما كنّا نقود خارجا اليوم التقينا الأمير الروسي في عربته، بدا متفاجئًا بشكل غير مستحب لرؤيتي بجانب ڤاندا، وبدا كما لو أنه أراد اختراقها بعينيه الكهربائيتين والخضراوين.

وهي لم يبد أنها لاحظته أبدًا - شعرت في تلك اللحظة أنني أود الركوع أمامها وتقبيل قدميها - وتركت عينيها تنزلق عليه بشكل لا مبال وكأنه كائن جامد، شجرة ربما، والتفتت إلي بابتسامتها الجميلة.

***

اليوم وعندما قلت لها ليلة سعيدة، بدت فجأة ولأسباب مجهولة فاترة ومضطربة.. ما الذي يشغلها؟

قلت حين وقفتُ على العتبة: "أنا آسفة لأنك ذاهب"

نوسلت: "إن موضوع تقصير فترة محنتي، والكف عن تعذيبي تمامًا بين يديك..."

قاطعتني: "هل تعتقد أن هذه القيود ليست عذابا بالنسبة لي أيضًا؟"

احتضنتها وصرخت: "إذن فلننته من كل هذا، كوني زوجتي."

قالت بكل هدوء ولكن بصلابة شديدة: "أبدًا سيڤرين"

صُعقت وأردفت: "ماذا تعنين؟"

" أنت لست الزوج الملائم لي."

نظرت في وجهها، وببطء سحبت ذراعي التي كانت لا تزال معلقة حول خصرها، ثم تركت الغرفة، وهي... هي لم تلفظ أي كلمة لأعود مرة أخرى.

***

أمضيت الليلة بلا نوم، اتخذت قرارات لا تعد ولا تحصى فقط للتخلص منها واحدًا تلو الآخر.

في الصباح كتب لها رسالة معلنا أن علاقتنا انتهت، ارتعشت يداي عندما كتبت، واحترقت أصابعي حينما ختمت الرسالة، وعندما صعدت إلى الطابق العلوي لتسليمها للخادمة، فكرت في الهروب، فُتح الباب وتوجهت ڤاندا

إلي وشعرها مليء بالبكرو.

قالت مبتسمة: "لم أرتب شعري بعد، ما الذي جاء بك هنا؟"

"رسالة...؟ لي أنا...!!"

أومأتُ برأسي، فتساءلت ساخرة:

"أها.. أنت تريد الانفصال عني؟"

"ألم تقولي بالأمس أنني لست الزوج الملائم لك؟"

"وأنا أقولها مرة أخرى الآن."

"إذن..." كان جسدي كله يرتجف، خذلني صوتي وسلمتها الرسالة.

"احتفظ بها" قالتها لي وهي تتفحصني ببرود شديد وتابعت: "لقد نسيت أن المسألة لم تعد متعلقة بكونك أشبعتني كرجل أو لا، لكنك باعتبارك عبداً كنتَ جيدًا بما فيه الكفاية في هذا الدور."

صرختُ مذعورا: "مولاتي!"

"نعم مولاتك، هذا ما ستدعوني به في المستقبل." أجابت ڤاندا وهي تشيح بمؤخرة رأسها بحركة ازدراء لا توصف.

"اعمل على تجهيز متعلقاتك خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة، أنا مغادرة إلى إيطاليا غدًا، وأنت ذاهب معي بصفتك خادمًا لي."

"ڤاندا!"

قالت مقاطعة كلماتي باختصار: "أنا أمنعك من لقاء أي قريب، ماذا أيضًا؟ نعم، لا يحق لك القدوم لزيارتي إلا في حال دعوتك أو سمعت الجرس، ولا تتحدث إلا إذا كان الحديث موجها إليك، ومن الآن فصاعدًا لم يعد اسمك

سيفرين؛ بل غريغور."

ارتعشتُ بغضب، ولكنني لا أستطيع إنكار أنني شعرت بسرور غريب.

قلت بارتباك: "ولكن سيدتي، أنت تعرفين ظروفي، أنا معتمد كليا على والدي، وأشك في أنه سوف يمنحني مبلغًا كافيًا لهذه الرحلة..."

قالت بابتهاج: "هذا يعني أنك لا تمتلك المال غريغور، وذلك أفضل بكثير؛ لأنه يعني أنك معتمد كليًا علي، وسوف تكون حقًا عبدي."

قلت محاولا الاعتراض: "ألا تعتقدين أنني كرجل شريف من المستحيل أن..."

قاطعتني بغطرسة: "أعتقد وكرجل شريف يجب ـ فوق كل شيء ـ أن تلتزم بكلمتك في اتباعي حيث أذهب كعبد، وتمتثل لكل أوامري، اتركني الآن غريغور."

توجهتُ نحو الباب للذهاب.

"ليس الآن، يجب أن تقبل يدي قبل الذهاب."

رفعت يدها بلا مبالاة تجاهي، وأنا الهاوي الحقير، الأحمق، العبد البائس... ضغطتُ يدها برقة مكثفة في شفتي الظمأى والمحترقة، على الأقل أومأت برأسها بلطف شديد وخرجت أنا.

***

بالرغم من أن الوقت متأخر في المساء إلا أن مصابيحي لا تزال مضاءة، والنار تشتعل في الموقد الأخضر الكبير، لا يزال هناك الكثير من الرسائل والوثائق ليتم ترتيبها، وحل علينا الخريف بقوة كما هو الحال عادة في مدينتنا.

وفجأة طرقَت على زجاج نافذتي بمقبض سوطها، فتحتُ النافذة، وها هي أمامي، واقفة ترتدي سترتها المبطنة بالفرو، وقبعة قوزاقية مستديرة من فرو القاقم؛ وبدت كأنها ترتدي ذلك النوع الذي تفضل ارتداءه كاثرين العظيمة؛ سألتني بصلابة: "هل أنت مستعد غريغور؟"

أجبتها: "ليس بعد يا مولاتي."

"أجبت هذه الكلمة سوف تناديني دائمًا بمولاتي، هل تسمع؟ سوف نرحل غدًا في التاسعة، وأنت رفيقي وشريكي حتى نصل إلى العاصمة، ولكن من اللحظة التي نلج فيها درب السكك الحديدية سوف تكون عبدي، خادمي. والآن أغلق النافذة وافتح الباب"

بعدما أنهيت تنفيذ أوامرها ودخلت غرفتي، سألتني وهي تعقد حاجبيها بسخرية: "حسنا، هل تجدني جذابة الآن؟"

"فاندا، أنت..."

"يالها من وقاحة!" صرخت ومنحتني ضربة حادة بالسوط.

"أنتِ جميلة بشكل مهيب مولاتي"

ابتسمت فاندا وجلست على الكرسي: "اركع هنا بجانب مقعدي"

أطعت، وتابعت: "قبل يدي" أمسكت بيدها الباردة الصغيرة وقبلتها.

"وفمي!"

وفي موجة من العاطفة قذفتُ ذراعي حول مولاتي القاسية الجميلة، وغطيتُ وجهها، يدها وصدرها بالقبلات الحارقة، والتي - مغلقة جفنيها كما في الحلم- ردتها بزخم مماثل، ولم أغادر إلا بعد منتصف الليل.

***

في الساعة التاسعة صباحًا كان كل شيء مُعَدا للرحيل كما أمرَت، وتركنا منتجع الكاربات الصحي الصغير في عربة مريحة.

المشهد الدرامي الأكثر إثارة للاهتمام في حياتي وصل إلى نقطة لا يستطيع أحد التنبؤ بمآلها.

كل شيء يسير على ما يرام حتى الآن، كنت قاعدًا بجانب ڤاندا، وتبادلت معي الحديث بكل لطف وذكاء، عن إيطاليا، أحدث روايات بيسمسكي، وموسيقى فاغنر. كانت ترتدي نوعا من ثياب السفر الأمازوني، بطانة سوداء مع سترة قصيرة من المواد نفسها محددة بالفراء الأسود، كان مناسبًا لها تمامًا وأظهر قامتها الممشوقة على أفضل وجه، في عقدة شعرها الإغريقية ترتاح قبعة من الفرو ينساب منها خمار أسود، كانت ڤاندا في مزاج جيد جدًا، أطعمتني الحلوى، لعبت بشعري وحلت ربطة عنقي وأعادت ربطها بشكل لائق أكثر، نشرت فراءها على ركبتي حتى يتسنى لها الضغط على يدي خلسةً، وحينما كان الحوذي اليهودي يتطلع نحو الدرب أعطتني قبلة، وكان لشفتيها الباردتين ذات العطر القارس لورد خريفي يزهر وحده وسط السيقان العارية والأوراق الصفراء، والتي في ساعات الصباح المتجمدة تتعلق حبات الألماس الجليدية على كأسها.

***

نحن الآن في البلدة الرئيسة، ترجلنا في محطة السكك الحديدية، وخلعت ڤاندا فراءها ووضعتها على ذراعي بابتسامة ساحرة، ثم ذهبت للحصول على التذاكر، وتغيرت تمامًا عندما عادت.

"هذه هي تذكرتك غريغور" قالتها مثل سيدة متغطرسة تتحدث إلى خادمها.

"تذكرة من الدرجة الثالثة!" صرختُ برعب هزلي.

"طبعا" وأضافت: "والآن تأكد أنك لن تصعد القطار حتى أستقر أنا في مقصورتي ولا أعود بحاجتك، وفي كل محطة ستأتي مسرعا إلى غرفتي لتلبية أوامري، لا تنس! أعطني فرائي."

وبعد أن ساعدتها في ارتداء فرائها بكل خضوع، ذهبت لتجد عربة فارغة في الدرجة الأولى.

اندفعت إلى الداخل وهي تسند جسدها على كتفي، دثرت قدميها بجلد الدب ووضعتهما في سطل من الماء الحار، وبعدها سألتني الرحيل بإيماءة من رأسها.

صارعتُ للصعود إلى عربة الدرجة الثالثة وكانت متخمة برائحة التبغ المثيرة للاشمئزاز، والتي بدا وكأنها ضباب آكرون عند مدخل هاديس. لدي الآن وقت فراغ كاف للتفكر حول لغز الوجود البشري، وحول لغزه الأعظم... النساء.

***

كلما توقف القطار أقفز مندفعًا إلى عربتها، وأقف صاغرًا منتظرًا أوامرها. أرادت قهوة ثم كوبا من الماء، وفي وقت آخر وعاء من الماء الدافئ لغسل يديها... وهلم جرا. غازلَت العديد من الرجال الذين دخلوا مقصورتها، أنا أموت من الغيرة، وعلي القفز كالظباء لتأمين ما تريد بسرعة وعدم تفويت القطار.

وبهذه الطريقة مر الليل، ولم أستطع تناول الطعام أو النوم.

أشارك الهواء الذي تفوح منه رائحة البصل الكريهة مع الفلاحين البولنديين، الباعة المتجولين اليهود، والجنود المبتذلين. عندما حملتني قدماي إلى مقصورتها، وجدتها متمددة براحة على الوسائد، مستترة بجلود الحيوانات مثل أميرة شرقية، وحولها الرجال قاعدين مثل آلهة هندية مستقيمة تمامًا على الجدران لا تجرؤ على التنفس.

***

توقفتْ في فيينا ليوم واحد من أجل الذهاب إلى التسوق، وبخاصة شراء مجموعة من الملابس الفاخرة، ولا تزال مستمرة في معاملتي كخادم لها، جعلتني أتبعها وبيننا مسافة محترمة من عشرة خطوات، سلمتني حاجياتها دون تشريفي حتى بنظرة ودودة، وتركتني لاهثًا خلفها ومُحَمَّلا مثل حمار.

أخذت كل ملابسي قبل مغادرتنا ووهبتها لحمال الفندق، وأمرتني بعد ذلك بارتداء كسوتها هي، وهو زي كراكوفي في ألوانها التي انتقتها؛ أزرق فاتح مع قطعة حمراء على الصدر، وقبعة حمراء مزينة بريش الطاووس، ولم تكن النتيجة النهائية غير مناسبة لي.

تنتشر الأزرّة الفضية في ذراعي معطفها، ويتولد لدي شعور أنني بعت نفسي أو استعبدت روحي للشيطان.

***

قادتني شيطانتي الجميلة من فيينا إلى فلورنسا، بدلا من مصاحبة الفلاحين

الماسورين واليهود ذوي الشعر الدهني، أصحابي الآن هم عريف لامع من أوائل رماة القنابل اليدوية في إيطاليا، ورسّام ألماني فقير. لم تعد رائحة البصل تفوح من دخان التبغ الآن؛ بل رائحة السجق والجبن.

وحل الليل مرة أخرى، تمددت على مقعد خشبي يبعث إحساسًا أنه ليس إلا رف، وتسبب ذلك بكدمات على أطرافي بقسوة، وعلى الرغم من ذلك فهناك شيء ما شاعري في وضعي الحالي، تتلألأ النجوم من فوقي، ويتراءى لي أن العريف الإيطالي يحمل وجه أبولو بلفيدير، والرسام يغني أغنية ألمانية جميلة:

ظلال المساء تتجمع بسرعة

وتظهر النجوم واحدة تلو الأخرى

يسقط عطر التوق الغريب

ويملأ الليل بهدوء

وعلى بحر الأحلام

روحي الوحيدة تبحر،

تبحر دونما توقف لترتاح في عينيكِ

وأنا أفكر في المخلوقة الإلهية التي تنام في راحة ملكية وسط فرائها الناعم.

***

فلورنسا، الحشود المزعجة، الصرخات، الحمالون وسائقو الحافلات. اختارت ڤاندا عربة ورفضت الحمالين.

"ما مهمة خادمي؟ غريغور هذه التذكرة، اذهب واحصل على الأمتعة."

لفت نفسها في فرائها وانتظرت بهدوء في العربة بينما أقوم أنا بسحب الحقائب الثقيلة واحدة تلو الأخرى. وحينما كنت على وشك الانهيار تحت الوزن الثقيل لإحدى الحقائب، شرطي كريم ذو وجه لطيف أتى ليساعدني، ضحكت وقالت: "لابد أن تكون ثقيلة، فكل فرائي داخلها"

صعدت إلى المقعد بجانب السائق، ماسحا قطرات العرق من جبيني. أعطت فاندا السائق اسم الفندق وحث على الفور حصانه للانطلاق، وبعد بضع دقائق، وقفنا أمام مدخل مضيء ببهاء لا يوصف.

وسألت الخادم: "هل لديك أي غرف؟"

"نعم سيدتي."

"اثنتان لي، وواحدة لخادمي، جميعها تحتوي على مواقد."

"غرفتان أنيقتان لك سيدتي، تحتوي على مواقد، وواحدة دون موقد لخادمك."

"أرني الغرف."

ألقت نظرة خاطفة وقالت بسرعة: "جيد، أنا راضية، أشعل النار فيهما دفعة واحدة، ويستطيع خادمي النوم في الغرفة التي بلا تدفئة."

حدقت فيها بفظاظة طويلًا، وأمرتني دون مبالاة: "أحضر الأمتعة غريغور، وفي غضون ذلك سأرتدي ملابسي وأنزل إلى غرفة الطعام، يمكنك أن تتناول العشاء لاحقًا"

وحينما اختفت في الغرفة المجاورة، سحبتُ الأمتعة إلى الطابق العلوي وساعدت الخادم في إشعال النار في غرفة نومها، وحاول سؤالي بفرنسية

ركيكة عن "مولاتي".

وبمسحة واحدة لمحت النار المتوهجة، السرير ذا الأعمدة الأربع مع ملاءته البيضاء العطرة، والسجاد الذي يغطي الأرضية.

متعبًا وجائعا نزلتُ الدرج وسألت عن شيء للأكل، نادل ودود - والذي كان مرة جنديا في الجيش النمساوي - بذل مجهودا كبيرًا للتحدث معي بالألمانية، قادني إلى غرفة الطعام وبقي ينتظرني.

خلال ست وثلاثين ساعة تناولت للمرة الأولى شرابًا منعشًا وكنت على وشك تذوق لقمتي الساخنة الأولى حينما دخَلَتْ.

نهضتُ على قدمي.

"ماذا تقصد حينما أخذتني إلى نفس غرفة الطعام التي يأكل فيها خادمي؟" قالتها للنادل الذي بجانبها مرتعشة بغضب، ثم استدارت ورحلت.

وفي أثناء ذلك شكرتُ السماء لقدرتي على تناول الطعام دون إزعاج، وفي وقت لاحق صعدتُ أربعة سلالم للطوابق العلوية ذاهبا إلى غرفتي، كانت حقيبة سفري الصغيرة في ذلك الحين موجودة هناك، وزيت المصباح القذر ينير الغرفة، والتي كانت عبارة عن غرفة ضيقة دون موقد، دون نافذة، بثقب صغير يعتبر كمنفذ للهواء، ومع أنها لم تكن باردة بشكل مخيف إلا أنها ذكرتني ببيومبي الثينيسة -سجون سيئة السمعة في قصر الدوق-

انفجرتُ ضاحكًا رغما عني، وأجفلني صوت صدى ضحكتي حينما عاد إلي.

فجأة تم سحب الباب ليفتح، واندفع الخادم هاتفًا بإيماءة مسرحية لا يمكن أن تكون إلا إيماءة إيطالية: "طلبت السيدة رؤيتك."

انفطتْ قبعتي وتعثرت حينما كنت نازلًا إلى الأسفل في الخطوات القليلة الأولى، ولكنني وصلت أخيرًا أمام بابها في الطابق الأول وقرعته.

"ادخل!"

***

دخلتُ مغلقًا الباب خلفي، ووقفتُ مصغيًا. استقرت ڤاندا مستريحة ترتدي ثوبا من الموسلين الأبيض والدانتيل، تجلس على صوفا من المخمل الأحمر وقدماها تستريحان على وسادة تتناسق مع الصوفا، ألقت على كتفيها عباءة الفرو التي ارتدتها حينما ظهرت لي لأول مرة كإلهة الحب.

الأضواء الصفراء من الشمعدانات، انعكاساتها في المرآة الكبيرة، واللهب الأحمر من الموقد المفتوح، يلقي وهجا خلابًا على المخمل الأحمر.

فراء السمور للعباءة البنية الداكنة، بشرة المرمر، والشعر الأحمر الملتهب للكائنة الجميلة. استدار وجهها البارد نحوي، وألقت عينيها الباردتين الخضراوين على عاتقي، وأردفت: "أنا راضية عنك غريغور"

انحنيتُ وتابعتْ: "اقترب!"

أطعتها.

"اقترب أكثر!"

نظرتْ إلى الأسفل وداعبتْ الفراء بأصابعها وقالت: "ڤينوس في الفراء تتسلم عبدها، أستطيع أن أرى أنك أكثر من رومانتيكي عادي، أنت لا تبقى بعيدًا أو متأخرًا عن أحلامك؛ لقد أصبحت الرجل الذي طالما تمنيت أن تكون إياه، على الرغم من أن أحلامك لا تعني أقل من حماقة، إلا أنني يجب

أن أعترف بهذا! لقد أثارت سلوكياتك إعجابي، هناك قوة في ذلك، والمرء لا يملك إلا احترام القوة. أعتقد حقًا أنه في ظل ظروف غير عادية وفي عصر ممجد أكثر من هذا، ما يتبدى على أنه ضعفك سيكشف عن نفسه على أنه قوة غير عادية، كان يمكن أن تكون شهيدًا في ظل الأباطرة الأولين، وفي فترة الإصلاح الديني خلال الثورة الفرنسية، ربما تكون واحدًا من هؤلاء الذين أنهوا الجيرونديين الذين ساروا إلى المقصلة ولا مارسييز (النشيد الوطني الفرنسي) على شفاههم، ولكنك اليوم عبدي و...."

وفجأة قفزتْ، انزلق الفرو إلى الأرض، وألقت ذراعيها حول عنقي مع ضغطة لينة وقالت:

"عبدي الحبيب، سيفرين، آه كم أحبك! كم أعشقك! ما أوسمك في الزّي الكراكوفي! ولكنك سوف تشعر بالبرد الليلة هناك في الأعلى، في غرفتك البائسة دون نار. هل يجب أن أعطيك أحد فرائي، الكبير الذي هناك يا عزيزي"

وسرعان ما التقطته وألقته على أكتافي، وقبل أن أعرف ما حدث لي كنت مُدثرًا تمامًا به.

"آه، لكم تلائمك الفراء، إنها تبرز نُبل ملامحك. بمجرد أن تتوقف عن كونك عبدي يجب أن ترتدي معطفًا من المخمل مزينًا بفراء السمور أو لن أرتدي معطف المخمل خاصتي أبدًا، هل تفهم؟" وبدأت تقبلني وتعانقني، وأخيرًا جذبتني إلى الأسفل بجانبها على الصوفا الصغيرة وقالت: "يبدو أنك راض تمامًا عن نفسك في الفراء، بسرعة أعده إلي أو سأفقد كل حس بالكرامة أمتلكه."

وضعتُ عباءة الفرو على أكتافها ودفعت ڤاندا ذراعها اليمنى في الكُم.

"هذه هي الطريقة التي تُرتدى فيها الفراء في لوحات تيتيان، ولكن لنكف عن المزاح الآن! لا تظهر دائمًا بمظهر البائس، فإن ذلك يجعلني أشعر بالحزن، في الوقت الحاضر أنت خادمي في أعين العالم فقط؛ أنت لم تقم بالإمضاء على العقد بعد، لا تزال حرًا، ويمكنك الرحيل في أي لحظة. لقد لعبت دورك بشكل مثالي وأنا راضية كل الرضى، ولكن ألم تتعب من كل هذا؟ ألا تجدني بغيضة؟ حسنًا، قل شيئًا أنا آمر بذلك".

سألتُها: "أ يجب أن أعترف لك بهذا ڤاندا؟"

"نعم يجب عليك ذلك."

"أنا منغمس في الحب معك أكثر من أي وقت مضى، حتى لو أسأتِ إلى إخلاصي لسوف أعشقك بتعصب أكبر، كلما آذيتني كما فعلتِ قبل قليل، كلما أشعلتِ قلبي وألهبت كل حواسي" جذبتها إلي وتشبثتُ عدة لحظات بشفتيها الرطبة.

"آه، أيتها المرأة المهيبة!" هتفتُ، باحثا في وجهها وبكل حرارة، مزقت الفراء على أكتافها وضغطتُ فمي على عنقها.

وأردفتْ: "إذن أنت لا تحبّني إلا عندما أكون قاسية؟ اذهب بعيدًا!! أنت تضجرني، ألا تسمع؟"

ثم صفعت وجهي بشدة إلى درجة أن النجوم تبدت أمامي وبدأت أذناي بالطنين.

"ساعدني في ارتداء فرائي أيها العبد."

وساعدتها بقدر استطاعتي.

" يالك من أخرق!" قالتها وصفعتني مرة أخرى، وشعرتُ بأن وجنتيّ

اكتسا بالشحوب.

"هل أذيتك؟" سألت وهي تلمسني بهدوء بيديها

صرختُ: "لا، لا"

"على أية حال ليس لديك سبب للتشكي، أنت تمنيت أن تكون الأمور بهذه الطريقة؛ تعال، وقبلني مرة أخرى."

عانقتها بذراعي وشفتاها تسكرُ من شفتي، وحينما رقدتْ مواجهة لصدري في فرائها الضخم والثقيل، شعور غريب ومؤلم تسلل إلي، كما لو أنني كنت تحت براثن حيوان بري، كما لو أنها دب يطوقني، بدا وكأن مخالبها تغرق في لحمي، ولكن الدب كان رحيما هذه المرة وسمح لي بالذهاب.

قلبي كان مليئا بالآمال المبهجة، صعدت إلى غرفتي، غرفة الخادم البائسة وألقيتُ بجسدي على السرير القاسي وفكرت: "الحياة غريبة جدًا، قبل لحظات، أجمل امرأة بين النساء، ڤينوس نفسها، كانت مستريحة على صدرك، وثم فجأة تجد نفسك تتذوق الجحيم الصيني بشكل مباشر، جحيم حيث لا يُلقى الملعونون في النيران، بل هم مطاردون من قبل الشياطين إلى السهول الجليدية الباردة. يجب أن لا أتفاجأ لو كان مؤسسوا دينهم ناموا أيضًا في غرف بلا تدفئة."

صحوت من نومي خلال الليل مع صرخة رعب؛ كنت أحلم بأن السبل قد تقطعت بي في حقل جليدي، وكنت أبحث عبثا عن طريق للخروج، وفجأة ظهر رجل من الأيسكيمو على زلاجة تقودها حيوانات الرنة؛ كان لديه وجه الخادم الذي أراني الغرفة غير المُدفأة، وصاح:

"ما الذي تبحث عنه هنا يا سيدي العزيز؟ هذا هو القطب الشمالي"

وبعد لحظة اختفى، وكانت ڤاندا تتزلج على السطح الجليدي، وتنورتها

المصنوعة من الساتان الأبيض تتلاطم وتخفق؛ أضاء الفرو الذي في معطفها وقبعتها ووجهها، كان أشد بياضًا من الثلج.

جاءت نحوي، طوقتني بذراعيها وبدأت بتقبيلي، وفجأة شعرت بالدم الدافئ يسيل قطرة قطرة من جلدي.

سألتها برعب: "ماذا تفعلين؟"

ضحكت، وحينما نظرت إليها مرة أخرى لم تكن ڤاندا، بل دبًّا أبيض كبيرًا يحفر جسدي بمخالبه، صرختُ عاليًا بيأس، ولا أزال أسمع ضحكتها الشيطانية بعدما استيقظت ونظرتُ مذعورًا من حولي.

***

في الصباح الباكر لليوم التالي وقفتُ متأهبًا أمام باب ڤاندا، وأحضر الخادم القهوة، أخذتها منه وقدمتها لمولاتي الجميلة.

كانت قد أنهت تبرجها للتو وبدت رائعة، ناضرة ومتألقة. ابتسمت بلطف في وجهي، وحتى أنها دعتني للجلوس عندما كنت على وشك الانسحاب باحترام.

"تناول وجبة إفطارك بسرعة غريغور، إننا ذاهبون للبحث عن منزل. لا أريد البقاء في الفندق لفترة أطول. الأمر محرج هنا بشكل رهيب؛ عندما أتحدث معك أكثر من دقيقة يفكر الناس فورًا، المرأة الروسية تربطها علاقة غرامية بخادمها، كما ترى، يبدو أن سلالة كاثرين العظيمة لم تنقرض حتى الآن."!

وبعد نصف ساعة خرجنا، ترتدي ڤاندا ثوبا يحتوي على قلنسوة روسية

وأنا كنتُ في الزي الكراكوفي. خلقنا ضجة، مشيتُ حوالي عشر خطوات خلفها، وعبير شرير يلوح في وجهي، محاولا بأقصى جهدي قمع ضحكتي.

لم يكن هناك شارع واحد حيث المنازل الجذابة فيه منزل يحمل علامة "غرفة مفروشة".

جعلتني فاندا أدخل كل واحد منها، وإذا كانت الشقة تلائم احتياجاتها عندها فقط تأتي لرؤيتها بنفسها، وخلال الظهر كنتُ متعبًا مثل كلب بعد الصيد.

دخلنا منزلًا بعد آخر دون وجود مكان ملائم للبقاء فيه، وبدأت فاندا تفقد أعصابها، وفجأة قالت لي: "سيڤرين، الجدية التي تلعب دورها جدًا محببة، والقيود التي فرضناها على بعضنا مزعجة لي حقًا، لا أستطيع الاحتمال أكثر، أنا أحبك، ولابد لي من تقبيلك، دعنا نذهب إلى هذا المنزل."

اعترضت: "ولكن يا سيدتي... "

"غريغور!" انزلقتْ إلى أقرب مدخل، وصعدتْ بخطوات قليلة إلى السلالم المظلمة، ألقت ذراعيها بحنان حولي وقبلتني بحرارة.

"آه سيڤرين، أنت ذكي جدًا، أنت خطر كعبد أكثر مما تخيلته؛ أنا لا أقاومك وأخشى الوقوع في حبك مرة أخرى."

"إذن أنت لم تعودي تحبينني؟" سألتُ وخوف مفاجئ يستولي علي.

أومأت برأسها بجدية، لكنها قبلتني مرة أخرى بشفتيها المتورمتين والعبقتين.

عُدنا إلى الفندق حيث تناولت فاندا طعام الغداء وأمرتني بأكل شيء بسرعة.

وبطبيعة الحال، لم تتم خدمتي بالسرعة ذاتها التي خُدمت بها، وحالما كنت على وشك ابتلاع القضمة الثانية من شريحة اللحم، ظهر النادل وصاح بهذه الطريقة المسرحية: "السيدة تطلب رؤيتك حالًا."

انصرفت عن طعامي متألّمًا، متعبًا وجائعًا، وسارعت بالذهاب إلى فاندا التي كانت تنتظر في الشارع.

قلت موبخا: "لم أكن أظن أنكِ بهذه القسوة، مع كل هذه الواجبات المجهدة فأنت لا تتركين لي الوقت لتناول طعامي بسلام."

ضحكت فاندا من أعماق قلبها وقالت: "اعتقدت أنك انتهيت ولكن ما المهم؟ وُلد الرجال للمعاناة، وأنت بالذات خلقت لذلك، إن الشهداء لم يحصلوا على شرائح اللحم."

تبعتها بامتعاض، والجوع ينخر معدتي.

"لقد تخليت عن فكرة إيجاد مكان ما في البلدة هنا، من الصعب جدًا الحصول على طابق كامل حيث نستطيع العيش فيه بخصوصية وحيث يمكننا القيام بكل تلك الأمور الرومانتيكية وغير العادية التي بيننا، سوف أستأجر ڤيلا بأكملها، وانتظر قليلًا، لسوف يفاجئك هذا. الآن يجب أن أسمح لك بتناول الطعام والقيام بجولة صغيرة في فلورنسا. لن أكون في المنزل حتى المساء، لو احتجتك سأرسل أحدًا لطلبك."

***

زرت الكاتدرائية، قصر فيكيو، لوجيا دي لانزي، ثم وقفت طويلًا على ضفاف نهر أرنو. ومرة تلو أخرى جعلت عيناي تمتصان روائع فلورنسا القديمة، قبابها المستديرة وأبراجها شكلت حدودًا تنتهي عند السماء الزرقاء

والضفة، يتمخض النهر الأصفر تحت الأقواس الواسعة للجسر الباهر، ويحيط بالبلدة دائرة من التلال الخضراء المرقطة بأشجار السرو النحيلة، المباني الممتدة، القصور والأديرة.

كان عالمًا آخر، بهيجًا، شهوانيًا وضاحكًا.

حتى الريف لا يحتوي على الكآبة السوداء لمشاهدنا، بدا وكأن التلال استحمت بضوء الشمس، و الفلل الصغيرة بدت مجللة بالألق. الناس هنا أقل جدية منا؛ إنهم يفكرون أقل لكنهم يبدون أكثر سعادة، إنهم يقولون إن الموت أسهل في الجنوب.

الآن أدركت أنه يمكن أن يكون هناك شيئ مثل الوردة دون أشواك وحب شهواني خالٍ من العذاب.

اكتشفت ڤاندا منزلًا صغيرًا ساحرًا استأجرته لفصل الصيف، وهو يجثم على تلة رائعة على الضفة اليسرى من نهر أرنو مقابل كاشينا، تحيط به حديقة رائعة مع كوخ ريفي، مرج أخضر وممرات مبهجة على حدودها تقبع الكاميليا، بُني المنزل على الطراز الإيطالي رباعي الزوايا، ويحتوي على طابقين فقط، يمتد رواق مفتوح يضم تماثيل قديمة مصنوعة من الجص على جانب واحد من المنزل، خطوات قليلة من الحصى تؤدي إلى أسفل الحديقة، ومن الرواق يستطيع المرء الدخول إلى حمّام ذي حوض من الرخام الفخم، حيث السلم الحلزوني يقود إلى الأعلى، إلى حجرة نوم "مولاتي".

ڤاندا شغلت الطابق الأول، وأنا حصلت على غرفة في الطابق الأرضي، كانت رائعة للغاية وفيها مدفأة.

طُفت حول الحديقة واكتشفت معبدًا صغيرًا شيد على التلة، وجدت بابه مقفلا، وحين حدقت من شق الباب وجدت إلهة الحب واقفة على قاعدة

بيضاء. رعشة مخيفة سرت في جسدي، بدت لي كأنها تتبسم في وجهي وتقول: "هل أنت هنا؟ لقد كنت أتوقع مجيئك."

***

خلال المساء، خادمة صغيرة أبلغتني أوامر للمثول أمام مولاتي، صعدتُ السلالم الرخامية الواسعة، ومررت من خلال حجرة الانتظار التي كانت عبارة عن غرفة رسم كبيرة مفروشة ببذخ، وطرقت باب غرفة النوم.. طرقت الباب بلطف، متأثرا بالترف المتبدي من حولي، لم تسمعني وتُركت منتصبا أمام الباب، لبرهة تصورت أنني واقف أمام غرفة كاثرين العظيمة، وبدا لي أنها ستخرج إلي بردائها الصباحي الأخضر والمحدد بالفرو، الشريط الأحمر يزين صدرها العاري، وأناقة شعرها المجعد بالبودرة البيضاء.. طرقتُ مرة أخرى فدفعت ڤاندا الباب بكسل لتفتحه، وسألت: "لماذا تأخرت؟"

"كنت واقفًا أمام الباب لكنك لم تسمعي طرقي" أجبتها باستحياء.

أغلقتْ الباب وتشبثتْ بي ثم قادتني إلى الأريكة الدمشقية الحمراء التي كانت مضطجعة عليها. الغرفة بأكملها كانت مفروشة بالأحمر، السجاد، الستائر، سرداق السرير والأستار المتدلية من قمته، لوحة مهيبة تُظهر شمشون ودليلة مزخرفة على السقف، استقبلتني ڤاندا بملابس مهملة آسرة، ثوب صباحي من الساتان الأبيض يرسم جسدها النحيل، وتتدفق طياته برشاقة، وعلى أكتافها العارية سترة من المخمل الأخضر محاطة أطرافها بالفراء، شعرها الأحمر مرفوع برباط من اللآلئ السوداء، ويسقط على ظهرها إلى وركيها.

"ڤينوس في الفراء" همستُ حالما، جذبتني إلى صدرها وأخذتني

بالقبلات. كنتُ عاجزًا عن الكلام والتفكير حتى، كنت غارقًا في محيط من نشوة لم أكن أتخيلها.

سحبَت فاندا برقة نفسها من حضني وحدقت في وجهي، ورأسها مستقر بين يديها، سقطتُ عند قدميها ولكنها رفعتني إليها وبدأت تحرك بأصابعها شعري.

"ألا تزال تحبّني؟" تساءلت وعيناها غائمة بنشوة عذبة.

"كيف لكِ أن تسألي مثل هذا السؤال؟"

"أتذكرُ عهدك؟" صمتت قليلا ثم تابعت بابتسامة ساحرة: "الآن كل شيء جاهز، وأنا أسألك مرة أخرى: هل أنت جاد؟ أتريد حقًا أن تصبح عبدي؟"

سألتُ متفاجئا: "ألستُ مستعدًا لهذا؟"

"أنت لم توقع على الأوراق بعد."

"أوراق!! أية أوراق؟"

"أها، لقد فهمت، لقد نسيت بالفعل، إذن دعنا نتخلى عن الأمر برمته."

"ولكن فاندا، أنت تعلمين أنه لا شيء يمنحني السعادة أكثر من أن أخدمك وأكون عبدًا لك؛ سأفعل أي شيء لأكون تمامًا تحت رحمتك، لأشعر أن حياتي بأكملها بين يديك."

همست: "يا لحماستك!! يا لوسامتك عندما تتحدث بمثل هذا الشغف! آه، أنا أحبك أكثر من أي وقت مضى، وأنت تريدني أن أكون مهيمنة، متجبرة وقاسية تجاهك! أخشى أنه سيكون من المستحيل بالنسبة لي."

قلتُ مبتسمًا: "لا تخافي، أين الأوراق؟"

"هنا"

سحبتْ الأوراق من صدريتها منحرجة قليلًا وأعطتني.

"وحتى تدرك ما يعنيه أن تكون تمامًا تحت سلطتي، لقد صغت اتفاقية أخرى فيما إذا قررت أن تضع حدًا لحياتك، وبهذه الطريقة لسوف أقتلك لو كنت أرغب في ذلك."

"دعيني أرها"

بينما فتحتُ الوثائق وقرأتها، ذهبت ڤاندا لتجلب القلم والحبر، ثم جلست بجانبي ووضعت ذراعها حول رقبتي وأطلت على الأوراق من فوق كتفي.

تقول الوثيقة الأولى:

اتفاقية بين السيدة ڤاندا فون دوناجوف والسيد سيڤرين فون كيوزميسكي

سيڤرين فون كيوزميسكي يتوقف منذ اليوم عن كونه خطيبًا للسيدة ڤاندا فون كيوزميسكي ويتخلى عن كافة حقوقه المتعلقة بذلك؛ وبناء على كلمته كرجل شريف ونبيل، سوف يكون عبدًا لهذه السيدة حتى يحين الوقت الذي تمنحه هي نفسها حريته.

كعبد للسيدة فون دوناجوف عليه أن يحمل اسم غريغور، وعليه دون قيد أو شرط أن يشبع كافة رغباتها، ويلبي جميع أوامرها، عليه أن يخضع دائمًا لمولاته، ويعتبر أدنى لطف منها منّة ورحمة استثنائية من قبلها.

لا يحق للسيدة فون دوناجوف أن تعاقب عبدها لأنفه سهو أو جنحة فحسب؛ بل أيضًا تعاقبه متى ما رغبت في ذلك، ولديها الحق أيضًا في إساءة معاملته تحت سطوة المزاج التي يستولي عليها أو فقط من أجل تسلية نفسها، ولها الحق في إنهاء حياته حالما رغبت في ذلك، وباختصار هو سيُصبح ملكيتها

المطلقة.

يحق للسيدة فون دوناجوف إعطاء عبدها حريته، ويجب أن يوافق السيد سيفرين فون كيوزميسكي على أن ينسى كل شيء خاصه أو عانى منه بصفته عبدًا لها، ويتعهد بأن لا يفكر في الثأر أو الانتقام تحت أي ظرف من الظروف.

ينبغي على السيدة فون دوناجوف كمولاته، ألا تظهر إلا بالفراء قدر الإمكان، وخاصة عندما تتصرف بقسوة تجاه عبدها.

وفي الأسفل ألحق بالعقد تاريخ اليوم.

والوثيقة الثانية تحتوي على بضع كلمات:

لأنني سئمت منذ سنوات من الوجود وما يصاحبه من خيبات، قررت أن أضع بمحض إرادتي حدا لحياتي عديمة الجدوى.

رعب عميق سيطر علي حال قراءتي هذه الكلمات، لا زال هناك متسع من الوقت للانسحاب، لكنني كنت مأخوذا بجنون العاطفة ومنظر الكائن الجميل الذي يستلقي بفتور في صدري.

"عليك أن تنسخ هذه سيفرين" قالتها فاندا مشيرة إلى الوثيقة الثانية. "يجب أن يكون بخط يدك، وهذا بالطبع غير ضروري في حالة الاتفاق."

وسرعان ما نسخت هذه الكلمات القليلة مؤكدا انتحاري وسلمته لفاندا، قرأته ووضعته على الطاولة بابتسامة عريضة.

وسألتني بمكر، ملتفتة برأسها إلى جهة واحدة: "والآن هل تمتلك الشجاعة لتوقيعها؟"

أخذتُ القلم..

"دعني أوقع أولًا، يداك ترتجفان! هل أنت خائف لهذه الدرجة من سعادتك؟"

اختطفتْ الوثيقة والقلم بعيدًا، وخلال انخراطي في صراع داخلي حدقتُ إلى الأعلى لوهلة وخطر لي أن هذه اللوحة على السقف، تتبع نمط العديد من المدارس الإيطالية والهولندية التي تفتقر إلى الطابع التاريخي، إلا أن هذه الحقيقة أعطتها مزاجا غريبا والذي كان له تأثير غريب علي، دليلة تلك المرأة الثرية ذات الشعر الأحمر المشتعل، تتكئ نصف عارية على أريكة حمراء وعباءة من الفرو تغطي أكتافها، تبتسم وتنحني تجاه شمشون الذي تم تقييده ورميه عند قدميها من قبل الفلسطينيين، ابتسامتها المغيظة والمتغنجة جعلتها تبدو في قمة القسوة، بعينين نصف مغلقتين حدقت تجاه شمشون الذي يرمقها بتوق وعاطفة مجنونة، وفي ذات اللحظة يجلس أحد أعدائه مُثبتا ركبته على صدره، وعلى وشك أن يعميه بالنصل الملتهب.

" والآن... تبدو تائهًا، ما الأمر؟ كل شيء سيبقى كما كان حتى بعد أن وقعت، ألا تعرفني حتى الآن يا عزيزي؟"

نظرتُ إلى الوثيقة، وقد كتب اسمها بخط عريض، نظرتُ مرة أخرى إلى هاتين العينين اللتين أسرتاني بسحرهما الخلاب، وعندها أخذت القلم.

أردفتْ بهدوء: " أنت ترتجف، هل ينبغي لي توجيه يدك؟"

أمسكتْ يدي بلطف وبعد لحظات ظهر اسمي في الجزء السفلي من العقد.

قرأتْ الوثيقتين مرة أخرى ووضعتهما في المكتب الموجود عند طرف الأريكة.

"حسنا والآن أعطني جواز سفرك ونقودك."

أخرجتُ محفظتي وسلمتها إليها؛ تفقدتْ المحتويات، أومأت برأسها

ووضعتها بعيدًا مع الأشياء الأخرى.

خلال نشوة حلوة ركعتُ أمامها وأملت رأسي على صدرها، وفجأة ركلتني بعيدًا، قفزتْ قفزات واسعة وسحبتْ حبل الجرس، واستجابة للصوت ظهرت ثلاثة شابات زنجيات نحيلات كأنهن منحوتات من خشب الأبنوس، يرتدين الساتان الأحمر، وكل واحدة لديها حبل في يدها، ادركت موقفي وكنت على وشك النهوض، لكن ڤاندا التفتت بوجهها البارد الجميل نحوي، بحاجبيها الداكنين وعينيها الساخرتين، تواجهني كسيدة آمرة، وأشارت بيدها، وقبل أن أعرف حقًا ما حدث لي، ألقتني الزنجيات على الأرض، وقيدن يدي وقدمي، ووضعن ذراعي خلف ظهري حتى لا أستطيع التحرك، مثل رجل على وشك مواجهة عقوبة الإعدام.

"أعطيني السوط هايدي" أمرت ڤاندا برباطة جأش تقشعر لها الأبدان.

سلمته إلى سيدتها راكعة.

"اخلعي فرائي إنها تعيقني."

أطاعت الزنجية، وأمرت ڤاندا مرة أخرى: "السترة ضعيها هناك."

جلبت هايدي بسرعة الكازبايكا المطرفة بالفرو من السرير، وانزلقت ڤاندا بخفة لا تضاهى.

"والآن اربطنه إلى العمود هنا."

الزنجيات رفعنني، وبرمن حبلا سميكا حول جسدي، وربطنني قائمًا إلى أحد الأعمدة الضخمة التي دعمت الجزء العلوي من السرير الإيطالي الواسع، ثم اختفين فجأة وكأن الأرض قد ابتلعتهن.

اقتربت ڤاندا مني بخفة، انساب فستانها المصنوع من الساتان الأبيض

خلفها مثل قطار طويل، مثل فضة، مثل ضوء القمر، واندلع شعرها مثل النيران فوق فراء سترتها.

والآن وقفت أمامي، يدها اليسرى على وركها، والسوط في يدها اليمنى، وانفجرت بضحكة مجلجلة.

أردفت ببرودة: "انتهت اللعبة، والآن سوف نبدأ بجد مبيد، أيها التافه الأخرق! أنا أحتقرك أنت الذي وسط افتتانك الأعمى وضعت نفسك تحت رحمة امرأة عابثة ومتقلبة، أنت لم تعد حبيبي، أنت عبدي وإن موتك وحياتك أمر متعلق بأهوائي، ينبغي أن تعرف من أنا الآن! قبل كل شيء يجب أن تتذوق السوط، بجدية هذه اللحظة ، حتى تعرف ما الذي ينتظرك إذا بدر منك أي تصرف أخرق، لو كنت عاصيًا أو متمردًا."

وبعد هذه الكلمات شمرت عن أكمامها المبطنة بالفراء، وبإيماءة جميلة وبربرية في الوقت ذاته، ضربتني في ظهري، جفلتُ كأن السوط اخترق لحمي مثل سكين.

صرختْ: "إذن كيف تحب هذا؟"

كنتُ صامتًا.

"سترى، سوف تئن مثل كلب تحت سوطي" قالتها مهددة ثم بدأت بجلدي مرة أخرى.. سقطت الضربات بسرعة، في تعاقب سريع وبقوة مريعة على ظهري، ذراعي ورقبتي؛ شددت أسناني وطبقت فمي بإحكام حتى لا أصرخ بصوت عال، ثم ضربتني في وجهي، وانساب الدم الدافئ إلى الأسفل، ولكنها في تلك اللحظة ضحكت واستمرت في جلدي.

صرختْ: "الآن فقط بدأت أفهمك، يا لها من بهجة عندما يكون هناك شخص ما تحت سلطتك، وخصوصًا الرجل الذي يحبك! ألا تحبني؟ إن

متعتي تزداد مع كل ضربة، ينبغي لي تمزيقك إلى أشلاء، والآن تلوّ مثل دودة من الألم، اصرخ، لن تستثير أي رحمة عندي."

وأخيرًا بدت وكأنها متعبة، قذفتْ السوط جانبا، تمددت على الأريكة ثم قرعت الجرس.

حينما دخلت الزنجيات قالت: "أطلقن سراحه"

سقطتُ أرضا عندما حللن وثاقي مثل غصن انفصل عن الشجرة الأم، وضحكت الكائنات الداكنة مظهرة أسنانها البيضاء.

"احللن الحبل الذي حول قدميه"

فعلن ذلك، لكنني كنت عاجزًا عن النهوض.

"تعال هنا غريغور."

واقتربتُ من المرأة الجميلة والتي بدت لي أكثر إغراء على الرغم من كل هذه القسوة والاحتقار.

أمرت قائلا: "اقترب خطوة أخرى، والآن اركع وقبل قدمي."

ومددت قدمها من أسفل طرف الساتان الأبيض، وأنا المجنون الغارق بشهوانيتي ضغطت شفتي على قدمها.

"لن تراني مدة شهر بأكمله غريغور" قالتها بجدية وتابعت: "أود أن أصبح غريبة بالنسبة لك ، حتى يصبح من السهل لك تقبل علاقتنا الجديدة، وفي تلك الأثناء سوف تعمل في الحديقة وتنتظر أوامري، والآن خارجا أيها العبد."

***

لقد مر شهر برتابة رمادية، أشغال شاقة، توق حزين وجوع لرؤيتها هي، هي مصدر آلامي والتي ألحقت كل هذه العذابات بي.

لقد تم وضعي تحت أوامر البستاني، أساعده في تشذيب الأشجار، تقليم الأسيجة، غرس الزهور، اجتثاث مشاتل الزهور وكنس ممرات الحصى.

شاركته طعامه الرخيص وفراشه الخشن، أستيقظُ صباحا مع الدجاج وآوي إلى فراشي عندما يأوي الدجاج، وبين الحين والآخر أسمع أن مولاتنا تعيش حياة عابثة محاطة بالمعجبين، حتى إنني مرة سمعت ضحكتها اللعوب هنا في الحديقة.

بدوت غبيًا جدًا أمام نفسي، وتساءلت ما إذا كان ذلك نتيجة لحياتي الخالية أو أنني لطالما كنت كذلك، سوف ينتهي هذا الشهر بعد غد، ماذا ستفعل بي؟ ربما قد نسيتني وينبغي أن أقضي بقية أيامي في تقليم الشجيرات وجمع باقات الأزهار إلى أن أسلم روحي لنهايتي الرحيمة...

***

خطاب مكتوب قد وصل حديثا:

"بموجب هذه الوثيقة يُطلب العبد غريغور لخدمتي الشخصية

فاندا دوناجوف"

***

في صباح اليوم التالي جذبتُ الستار الدمشقي وقلبي يكاد يقفز من أضلاعي، دخلت مخدع إلهتي التي لا زالت مستلقية في نصف الظلمة وسألتني حينما كنتُ راكعًا أمام الموقد لإشعال النار: "أ هذا أنت غريغور؟" جفلتُ من صوت محبوبتي، لم أستطع رؤيتها، كانت غير مرئيّة وهي مستلقية خلف ستائر السرير ذي الأعمدة الأربعة.

"نعم سيدتي"

"كم الساعة الآن؟"

"تجاوزت التاسعة"

"وجبة إفطاري!"

سارعت في جلبه ثم ركعتُ أمامها وصينية القهوة بين يدي وقلت: "الإفطار مولاتي."

أزاحت ڤاندا الستائر واسترقتُ النظر لإشباع فضولي، رأيتها مستلقية هناك بين الوسائد وشعرها يتدفق فوق أكتافها، بدت غريبة تمامًا، امرأة جميلة فقط لا غير، لم تكن هذه هي الملامح والخطوط المحببة التي أعرفها، ولكنه وجه بارد يلوح منه تعبير بالضجر والتخمة، والذي وجدته مزعجا بشدة، أو ربما أنني ببساطة لم ألحظ هذه السمات من قبل؟

حدقتْ فيَّ بعينيها الخضروين بفضول لا بتهديد أو شفقة، وجذبت بتكاسل الفراء المعتم التي كانت تمدد عليه أكتافها العارية.

كانت ساحرة جدًا في هذه اللحظة، خلابة للغاية وشعرت لحظتها أن دمي اندفع إلى رأسي، وبدأت الصينية تهتز بين يدي، لاحظتْ هذا والتقطتْ

السوط القابع على المنضدة بجانبها، وقالت مباشرة وهي تقطب حاجبيها:

"أنت أخرق أيها العبد"

نظرتُ إلى الأسفل وحاولت حمل الصينية بثبات قدر استطاعتي.

أخذتْ إفطارها وتثاءبت وهي تمدد أطرافها المترفة في فرائها المهيب.

***

قرعتْ الجرس ودخلت أنا.

" خذ هذه الرسالة إلى الأمير كورسيني."

أسرعتُ إلى البلدة وسلمتُ الرسالة إلى الأمير، كان شابا وسيما بعينين سوداوين ومتوهجتين. محترقا بالغيرة أخذتُ جوابه إلى مولاتي.

"ما الأمر؟" سألتني وهي تنظر بخبث ثم تابعت: " تبدو شاحبًا"

"لا شيء مولاتي، بالتأكيد لأنّي جريت بسرعة"

***

كان الأمير يجلس بجانبها على الغداء، وكنت مدانًا بخدمته وخدمتها. تبادلا المزاح وتجاهلاني وكأنني غير موجود مطلقًا، وحينما كنت أسكب البوردو، شعرت بدوار وغمامة سوداء خيمت علي، فأرقت الشراب على مفرش المائدة وعلى ثوب مولاتي.

"يالك من أخرق!" صرختْ وصفعتْ وجهي. ضحك الأمير بحرارة وضحكت هي كذلك، أما أنا فقد اندفع الدم إلى رأسي.

***

بعد الغداء ذهبتُ إلى كاشينا، قادت بنفسها العربة الصغيرة والتي تسحبها أحصنة أنيقة من إنجلترا، جلستُ خلفها وشاهدتها وهي تتصرف بغنج، وتومئ بابتسامة حينما ينحني أحد السادة المميزين لها، وعندما ساعدتها في النزول من العربة، اتكأت برفق على ذراعي؛ دبّت لمستها خلالي مثل صدمة كهربائية.

وا أسفاه! إنها امرأة رائعة بحق وأنا غارق في حبها إلى الأبد.

***

في الساعة السادسة مساءً دعت حلقة صغيرة من السيدات والسادة لتناول العشاء، وأنا كنت أخدم عند الطاولة، هذه المرة لم أقم بسكب النبيذ على مفرش المائدة، إن صفعة في الوجه لهي أكثر فعالية من عشر محاضرات، إنها تجعلك تتعلم بسرعة خصوصا حينما تكون بيد امرأة صغيرة.

***

بعد العشاء قادت إلى مسرح بيرغولا، وحينما نزلتْ من السلالم في فستان المخمل الأسود الذي يحتوي على ياقة واسعة من فرو القاقم ويزين شعرها إكليل من الورود البيضاء، كان تأثيرها علي قويًا ومربكًا، فتحتُ باب العربة وساعدتها في الصعود، وعندما وصلنا إلى المسرح، انزلقتُ من مقعدي لمساعدتها، وارتعدتُ تحت سطوة اللذة حينما ارتاحت برفق على ذراعي.

رافقتها إلى مقصورتها ووقفت منتظرا في الدهليز.

استمر العرض أربع ساعات، وخلال هذا الوقت بينما كانت تتلقى زيارات مستمرة من معجبيها، كنت أنا أشد على أسناني بغضب شديد.

***

تجاوزت الساعة منتصف الليل حينما قرعت مولاتي الجرس للمرة الأخيرة وأمرت بإيجاز: "أشعل النار" وحينما توهجت ألسنة اللهب قالت: "أحضر شايًا لي!"

عندما عدت مع السماور كانت قد خلعت ملابسها بمساعدة الزنجية وانزلقتْ إلى ثوب النوم الأبيض، وبعدها خرجت هايدي من الحجرة.

قالت بصوت ناعس وهي تمدد أطرافها الجميلة: "أعطني فراتي"

التقطتُ الفراء من المقعد وسلمته إليها، وبكل بطء وتكاسل انزلقت ذراعاها في الأكمام، ثم ألقت بنفسها وغرقت وسط الوسائد على الأريكة.

"اخلع حذائي، وألبسني خفي المخملي."

ركعتُ وحاولت انتزاع الحذاء الصغير بلا طائل.

حتى صرخت فاندا في وجهي: "أسرع! أنت تؤذيني! انتظر لحظة لسوف ألقنك درسًا" وضربتني بالسوط.

وأخيرًا نجحتُ في انتزاع الحذاء.

" والآن اخرج!" ركلتني مرة أخرى ومن ثُم سُمح لي بالذهاب إلى السرير.

***

رافقتها هذه الليلة إلى سهرة، وفي مدخل القاعة أمرتني بمساعدتها في خلع فرائها، ثم دخلتْ إلى الغرفة المضاءة بتألق، بابتسامة متفاخرة واثقة من انتصارها. مرت ساعة بعد ساعة، كنت قد بقيت فيها وحيدا مع أفكاري المظلمة، ومن وقت لآخر تصل إلي خيوط من الموسيقى من خلال الباب نصف المفتوح.

حاول العديد من الخدم بدء محادثة معي، غير أنني لا أعرف سوى بضع كلمات بالإيطالية، سرعان ما فقدوا الاهتمام بي.

وأخيرًا سقطت نائما وحلمت أني أقتل ڤاندا في نوبة عنيفة من الغيرة، وحكم علي بالإعدام، رأيت نفسي مربوطًا على السقالة، وسقط النصل، شعرت به على رقبتي ولكنني لا زلت حيًا، ثم صفع الجلاد وجهي.

لا، لم يكن الجلاد، بل كانت ڤاندا تقف أمامي بغضب شديد مطالبة بفرائها. وفورًا كنت بجوارها أساعدها في ارتدائه.

يالها من لذة عميقة عند مساعدة مخلوقة مهيبة في الالتفاف بفرائها، في تحسس مؤخرة عنقها عندما تنزلق يداها الرائعتان في الفراء الناعم والثمين، ويالها من لذة أخرى عند رفع شعرها الأجعد وترتيبه على الياقة!

يالها من بهجة عندما خلعت فراءها ولا زال محتفظا بحرارة جسدها وعطره الخافت، إنه يفقدني الوعي.

***

على الأقل يوم واحد بلا ضيوف، بلا مسرح أو أية رفقة أخرى. تنفستُ الصعداء، فاندا جالسة في الشرفة تقرأ، وعلى ما يبدو ليس لديها أية أوامر لي. عندما تلاشت سحابة المساء الفضية وسقط الشفق، خدمتها على العشاء بالرغم من أنها تأكل وحيدة، لم تمنحني نظرة، كلمة، ولا حتى صفعة على وجهي.

يا إلهي! لكم أتوق لجلدة واحدة من يدها! امتلأت عيناي بالدموع وشعرت كم أذلتني بعمق إلى درجة أنها لم تعد تتلذذ بتعذيبي أو إساءة معاملتي. قبل أن تذهب إلى سريرها قرعت الجرس وقالت:

"سوف تنام الليلة في غرفتي؛ تراءت لي كوابيس مرعبة البارحة وأخاف من البقاء وحيدة، خذ بعض الوسائد من الأريكة، وتعال استلق على فرو الدب عند قدمي."

ثم أطفأتْ الأضواء، الإضاءة الوحيدة التي بقيت من مصباح صغير يتدلى من السقف، دخلت في سريرها وأردفت: "لا تتحرك حتى لا توقظني"

فعلت كما أمرت، لكنني لم أستطع أن أغفو مدة طويلة.، مثل إلهة استلقت ملتحفة بالفراء، ذراعاها مطويتان تحت رقبتها، وشعرها مبعثر على الوسادة، يرتفع صدرها المهيب في تنفس منتظم عميق، وعندما تقوم بأدنى حركة أثب وأصيخ السمع، ربما احتاجتني، ولكنها لم تحتجني.

وظيفتي الوحيدة هي أن أكون هناك؛ أعني لا شيء أكثر من ضوء المصباح الليلي أو مسدس مُلقىً بجانب السرير.

أ أنا المجنون أم هي؟

أكل هذا انبثق من ابتكارات عقل امرأة وحشية والتي لم يكن هدفها لا تجاوز تخيلاتي الشهوانية؟ أم إنها إحدى هذه الشخصيات النيرونية التي

تتمتع بأن تدوس بأقدامها مثل دودة على الرجل الذي يكن مشاعرًا لها، الرجل الذي يحبها ويفكر فيها؟ ما الذي مررت به؟

حينما كنتُ راكعًا مع صينية القهوة بجانب سريرها، أراحت فاندا يدها فجأة على كتفي، غرقت في عمق عيني وقالت برفق: "أي عيون جميلة تلك التي تمتلكها! وخصوصا الآن بما أنك تعاني، هل أنت تعيس جدًا؟"

انحنيتُ برأسي وبقيت صامتا.

"سيڤرين ألا تزال تحبّني؟" وفجأة تابعت بانفعال: "أ يمكنك أن تظل تحبّني؟"

وجذبتني بعنف إليها إلى درجة أن الآنية الفخارية طارت واندلقت القهوة على السجاد.

"فاندا! حبيبتي فاندا!" صرختُ وأنا أضمها بحرارة وأغطي فمها، وجهها، صدرها بالقبلات.

" إن تعاستي تنحصر في أنه كلما أسأت معاملتي وأمعنت في خيانتي، كلما أحببتك بجنون أكثر، آه ينبغي أن أموت من الحسرة والحب والغيرة."

أجابت فاندا بابتسامة : "لكنني لم أخنك بعد سيڤرين."

"أ لم تفعلي؟ فاندا حبًا في الله لا تتهكمي بي! أ لم أسلم أنا نفسي الرسالة إلى الأمير؟"

"بالتأكيد، كانت دعوة للغداء فقط"

"مُذ كنّا في فلورنسا، أنتِ..."

"بقيتُ مخلصة تمامًا لك، أقسم بكل ما هو مقدس، إنني فعلت كل هذا لأجل إشباع رغباتك فقط، على أي حال ينبغي لي الآن أن أجد عشيقًا لي

وإلا سأبقى دائمًا في المنتصف، وستصب علي اللوم والتقريع لأنني لم أعاملك بقسوة كما ينبغي، آه يا عبدي العزيز الجميل! اليوم ستكون سيفرين مرة أخرى، الرجل الوحيد الذي أحب، لقد احتفظت بملابسك، سوف تجدها هناك في الصندوق، اذهب الآن وارتد ما كنت ترتديه في منتجع الكاربات الصحي عندما كان حبنا متوهجا جدًا، انس كل شيء حدث بعد ذلك، آه لسوف تنسى قريبًا وأنت بين ذراعي ولسوف أقبل جميع أحزانك."

وبدأت في معاملتي بحنان مثل طفل، وتقبيلي وعناقي، وأخيرًا قالت بابتسامة جميلة: "اذهب واستعد الآن، وأنا أيضًا سأرتدي ملابسي، هل أرتدي سترة الفرو؟ أوه نعم بالطبع سأفعل، اذهب بسرعة الآن."

عندما عدتُ كانت واقفة في منتصف الغرفة، ترتدي فستان الساتان الأبيض، والكازبايكا الحمراء المحددة بالفرو، ينتشر البياض في شعرها نتيجة البودرة البيضاء، وعلى جبينها إكليل مرصع بالجواهر. لوهلة ذكرتني بطريقة كاترين الثانية الغريبة، ولكنها لم تعطني الكثير من الوقت للذكريات، وجذبتني إلى الأسفل بجانبها على الصوفا. أمضينا ساعتين هنيئتين مع بعضنا لم تعد فيها تلك المولاة الصارمة والمتقلبة، ولكن سيدة راقية، وحبيبة رقيقة. أرتني صورا وكتبا كانت قد نُشرت لتوها، وتحدثت معي بحيوية، بوضوح وذوق رفيع حتى أنني رفعت يدها أكثر من مرة إلى شفتي وقبلتها مبتهجا، ثم قرأت لها بعضا من قصائد ليرمونتوف، وعند ذروة حماسي تريح يدها الصغيرة برفق على يدي وتسألني وعيناها مغمورة بالإعياء اللذيذ: "هل أنت سعيد؟"

"ليس بعد"

استلقت على الوسائد وفتحت سترتها ببطء، ولكنني بسرعة سترت صدرها نصف العاري بالفراء.

"أنت تقودينني للجنون!"

"تعال إلي"

سقطت بين ذراعيها وكانت تقبلني كالحية بلسانها، ومن ثم همست مرة أخرى: "هل أنت سعيد؟"

صرخت: "بشكل لانهائي"

انفجرت ضاحكة وكان لضحكتها وقع شرير مما جعل الرعشات الباردة تنساب مسرعة في ظهري.

"لقد حلمتَ بأن تكون عبدًا ودمية في يد امرأة جميلة، والآن تتصور أنك إنسان حر؛ وتعتقد أنك حبيبي أيها الأخرق المجنون! إشارة مني وتعود عبدًا مرة أخرى، إلى الأسفل على ركبتيك"

سقطت عند قدميها ولا تزال عيناي المترددة مثبتتان عليها.

"لا تستطيع تصديق ذلك." نظرت إلي وذراعاها مطويتان على صدرها.

"أنا أشعر بالضجر، وكل ما تصلح له هو أن تسليني لبرهة، لا تنظر إلي بهذه الطريقة!" وركلتني بقدمها" أنت كل ما أرغب أن تكونه، رجلا، شيئًا، بهيمة."

قرعت الجرس والفتيات السوداوات ظهرن.

"اربطن يديه وراء ظهره."

بقيت راكعًا على ركبتي، ربطن وثاقي ولم أقاوم، قدنني إلى كروم العنب، والتي تقبع في الجانب الجنوبي من الحديقة، لقد تم زرع الذرة بين التعريشات، ولاتزال بعض السيقان اليابسة تقف هنا وهناك، ومحراث قد ترك أيضًا.

الزنجيات ربطنني بالركيزة وعن طريق وخزي بدبابيس الشعر الذهبية متعن أنفسهن، ولكن هذا لم يدم طويلًا، لأن فاندا ظهرت بقبعة من الفرو على رأسها، ويداها في جيوب سترتها.

أمرتهن بفك وثاقي عن الركيزة ويربطن يدي وراء ظهري، ثم وضعت النِّيرُ على كتفي وسرجتني بالمحراث.

وبعدها دفعني شياطينها السوداء خارجا إلى الحقل، واحدة تقود المحراث، الثانية تقودني بالرسن أما الأخرى فهي تحثني بالسوط. في حين أن ڤينوس في الفراء تقف جانبا تتأمل هذا المشهد.

***

قالت لي عندما كنت أخدمها على العشاء في اليوم التالي: " اجلس في مكان ما، أريدك أن تأكل معي اليوم."

وحينما كنت على وشك الجلوس مقابلًا لها أردفت معترضة: "لا، بجانبي قريبًا مني."

كانت في مزاج جيد، ناولتني الحساء بملعقتها، أطعمتني بشوكتها، ووضعت رأسها على الطاولة مثل قطة لعوب وغازلتني."

لسوء حظي نظرت إلى هايدي التي كانت تخدم في مكاني، ربما لوقت أكثر مما ينبغي، للمرة الأولى لاحظت نبلها، ملامحها أوروبية تقريبًا، صدرها المثالي الذي يبدو وكأنه نحت في رخام أسود، لاحظتْ الشيطانة السوداء أنها جذابة بالنسبة لي وقابلتني بابتسامة عريضة تكشف عن أسنانها الباهرة، وبالكاد تركت الغرفة قبل أن تنفجر فاندا غاضبة.

"ماذا! أتجرؤ على النظر إلى امرأة أخرى في وجودي! ينبغي أن تلائمك أكثر مني! حتى أنه أكثر شيطانية!"

أنا مرعوب، لم يسبق لي أن رأيت ڤاندا هكذا من قبل؛ تحول لون وجهها وحتى شفتيه فجأة إلى اللون الأبيض مثل ورقة وجسدها بأكمله يرتجف. ڤينوس في الفراء غيورة من عبدتها! انتزعت السوط من خطافه وضربتني في وجهي، ثم استدعت خادماتها السوداوات، وأمرت أن يتم ربطي وجري إلى أسفل القبو، حيث رمينني في حجرة تحت الأرض، مظلمة ورطبة، زنزانة حقيقية.

أُغلق الباب من خلفي، سُحبت البراغي ورُمِيَ المفتاح في القفل أرضا. أنا سجين وقد دفنت حيا.

***

لا أعلم مُذ متى وأنا مستلق على كومة القش الرطبة، مربوط مثل عجل ينتظر ذبحه، دون ضوء، دون طعام أو شراب وعاجز عن النوم، لديها كل ما تحتاجه، لكنها تجعلني أتضور جوعا حتى الموت، هذا إذا لم أمت من البرد قبل ذلك، أ أنا أرتجف من البرد أم إنها حمى؟ أعتقد أنني بدأت أكره هذه المرأة.

***

خيط أحمر مثل الدم يفيض على الأرض؛ إنه الضوء الساقط من خلال الباب، شخص ما يفتحه، ظهرت ڤاندا على العتبة ملتحفة بالفراء، ومشعل مضاء في يدها.

سألت: "ألا تزال حيّا؟"

أجبتها بصوت منخفض أجش: " هل أنت قادمة لقتلي؟"

بلمحة بصر وقفت ڤاندا بجانبي؛ ركعت ووضعت رأسي في حضنها.

"هل أنت مريض؟ حتى عيناك تتوهجان، أتحبني؟ أريدك أن تحبني."

سحبت خنجرا صغيرًا، وتحت بريق نصله كنت مسكونًا بالخوف، مقتنعا بأنها على وشك قتلي، لكنها ضحكت وقطعت الحبل الذي يربطني.

***

كل مساء بعد العشاء ترسل في طلبي، وتطلب أن أقرأ لها، ثم تناقش معي موضوعات عدة. يبدو أنها تحولت تمامًا، كأنها تشعر بالعار من وحشية سلوكياتها وقسوة معاملتها لي، لمسة من الوداعة تتجلى فيها، وعندما تشير بيدها لتلوح لي وداعًا، تتوهج عيناها بالضوء المقدس لإلهة الحب الذي يمسني حد البكاء، ويمسح عن قلبي كل مآسي الوجود ورهبة الموت.

***

أنا أقرأ لها مانون ليسكو، تشعر بالارتباط، لكنها لا تنطق بكلمة، فقط تتبسم من وقت لآخر، وأخيرًا أغلقتْ الكتاب الصغير.

"ألا تريدين أن أتابع القراءة سيدتي؟"

"ليس اليوم، لقد قررت أن أمثل قصة مانون على أرض الواقع، لدي موعد في كاشينا اليوم، وأنت يا فارسي العزيز سوف ترافقني، ستفعل، أليس

كذلك؟"

"أنا أطيع جميع أوامرك."

قالت بسحر لا يقاوم: "أنا لا آمرك بل أسألك."

نهضت، ووضعت يدها على كتفي ونظرت إلي وهتفت: "يا هاتين العينين! أنا أحبك، سيفرين ليس لديك أدنى فكرة عن مقدار حبي لك."

أجبتها بمرارة: "لا بل لدي، أنت تحبينني كثيرًا لدرجة أنك ذاهبة في موعد مع رجل آخر"

"فعلت هذا فقط لأستثير عاطفتك، أنا مضطرة لاتخاذ عشاق حتى لا أخسرك، لا أريد أن أخسرك أبدًا، أتسمع؟ لأنني أحبك فقط، وحدك أنت." ثم قبلت شفتي.

"آه لوكنت أستطيع أن أعطيك روحي بهذه القبلة! ولكن تعال الآن"

ثم ارتدت معطفا بسيطا من المخمل الأسود ووضعت باشليك أسود ـ نوع من القبعات الروسية ـ على رأسها، ثم ذهبت بسرعة عبر الرواق ودخلت العربة.

"غريغور سوف يقود" صرخت للحوذي الذي انسحب بمفاجأة، صعدتُ إلى مقعد السائق وجلدت الخيول بغضب.

عندما وصلنا إلى كاشينا، ترجلت قائدا حيث بدأ الزقاق الواسع يضيق إلى ممر معشب ومخضر.

كان الوقت ليلًا، وتألقت النجوم المتناثرة في الغيوم الرمادية التي تجري في السماء.

في بنك أرنو وقف رجل يشاهد الموجات الموحلة، كان يرتدي عباءة

سوداء أعطته صورة قاطع طريق، وبسرعة مشت ڤاندا من خلال الشجيرات ونقرته بأصابعها على كتفه، يمكنني رؤيته وهو يلتفت إليها ويأخذ يدها؛ ثم اختفى كلاهما خلف الجدار المورق.

ساعة كاملة من التعذيب! وأخيرًا سمعت خشخشة بين الشجيرات ثم عاودا للظهور.

رافقها الرجل إلى العربة، وكشف الفانوس عن شباب لا يصدق، لم أر مثله إطلاقا، وجهه ينضح بالسوداوية والنبل، والضوء الساطع ينير جدائله الذهبية، عقدت يديها اللتين قبلهما باحترام عميق، ثم أشارت لي، وعلى الفور كانت العربة مسرعة على طول خط الأشجار التي تحيط بالنهر مثل قماش نجود أخضر.

***

رن الجرس عند بوابة الحديقة، أنا أعرف هذا الوجه، إنه الرجل الذي كان في كاشينا، سألته بالفرنسية: "من أعلن عن قدومه؟"

هز رأسه وسأل خجلا: "أتفهم بعض الجرمانية؟"

"بالطبع، كنت أسأل ما اسمك؟"

أجاب محرجا: "آه، ليس لدي اسم حتى الآن، أخبر سيدتك بأن الرسام الألماني من كاشينا هنا ويريد... أوه ها هي نفسها."

ظهرت ڤاندا من شرفتها وأومأت للغريب، ثم قالت لي: "غريغور قد الرجل إلى الداخل."

وأريته الطريق نحو السلالم.

"شكرًا سوف أجدها الآن، شكرًا شكرًا جزيلًا."

صعد السلالم عجلًا، وبقيت واقفًا في الأسفل أنظر بشفقة عميقة للألماني المسكين. ڤينوس في الفراء استولت على روحه بتجعيدة شعرها الأحمر. سوف يرسمها والضريبة أن يفقد عقله.

***

إنه يوم شتائي مشمس.. ضباب ذهبي يرتجف على أوراق الأشجار وعلى سطح المرج الأخضر، أسفل الشرفة براعم الكاميليا تشبه الجواهر التي ستنفجر أزهارًا. تجلس ڤاندا في الصالة المفتوحة ترسم، والجرماني يقف أمامها ويدا متشابكتا بعشق، ناظرًا، لا بل محدقًا بنشوة في وجهها، أسيرًا تمامًا للمشهد الذي أمامه. ولكنها تجاهلته، ولم تعرني انتباهًا أيضًا، وأنا أتنقل على التربة مثل مشتل أزهار، لربما أراها وأستشعر حضورها الذي له تأثير الموسيقى علي، مثل الشعر.

***

لقد ذهب الرسام، أنا على وشك القيام بأمر جرئ جدًا لكنني خاطرت، ذهبت إلى الأعلى إلى الصالة، تقدمت من ڤاندا وسألتها: "هل تُحبين الرسام مولاتي؟"

أجابت: "أنا أشفق عليه، لكنني لا أحبه، أنا لا أحب أحدًا، لقد أحببتك بحرارة، بشغف، بعمق أكثر مما كنت أتصور أنني قادرة يومًا ما على الشعور به، لكن الآن أنا لم أعد أحبك حتى، قلبي فارغ، ميت، وذلك ما يجعلني حزينة."

"فاندا!!" صرختُ متأثرًا بعمق.

" قريبًا، قريبًا جدًا أنت ستتوقف عن حبي أيضًا" وتابعت: " أعلمني عندما تصل إلى هذه النقطة حتى أرد إليك حريتك."

صرخت مسعورا: "إذن سوف أظل عبدكِ طوال حياتي، لأنني أعشقك وسأفعل دائمًا."

نظرت فاندا إلي بمتعة غريبة: "فكر في هذا جيدًا، لقد أحببتك بلا حدود، وعاملتك باستبداد من أجل إشباع رغباتك، شيء من شعوري القديم، نوع من العاطفة الحقيقية تجاهك لا زال يرتجف في صدري، ولكن عندما يختفي كل شيء، من يدري إن كنت سأحررك؟ ربما قد أصبح وحشا قاسيا ولا رغبة لدي إلا تعذيبك، ورؤية الرجل الذي يحبني يموت من الحب، بينما أبقى أنا غير مكترثة له أ وربما أكون واقعة في حب شخص آخر، فكر في هذا جيدًا سيڤرين."

"فكرت في هذا فترة طويلة." أجبتها محترقا من الحمى وتابعت: "لا يمكنني أن أكون، أن أعيش إلا بوجودك.. سأموت لو رددتِ لي حريتي، دعيني أبقَ عبدك، اقتليني، لكن لا تبعديني عنك."

"حسنا إذن، ابق عبدي، لكن تذكر انني لم أعد أحبك، وإن حبك لا يعني لي شيئًا أكثر من تعلق كلب، وقد خلقت الكلاب لتُركل."

***

اليوم ذهبت لزيارة تمثال ڤينوس دوميديشي، كان لا يزال الوقت مبكرًا، وكانت الغرفة مثمنة الأضلاع الصغيرة في التريبونا ظليلة مثل معبد. وقفت بإعجاب عميق، ويداي متاشبكتان أمام صورة الإلهة الصامتة، لكنني

لم أصمد طويلًا، لم تكن هناك نفس بشرية في المعرض، ولا حتى رجل إنكليزي واحد، سقطت على ركبتي راكعًا أمام التمثال، حدقت في حلاوة العذراء، الجسد الرشيق، وثدييها المتبرعمين، وجهها الشهواني، عينيها نصف المغلقتين، والشعر المجعد العبق الذي ينتشر في جانبي رأسها ويبدو كأنه يخفي قرونًا صغيرة.

***

قرعت مولاتي الجرس. كان وقت الظهيرة، ولكن مولاتي لا تزال على السرير وذراعاها متشابكتان خلف عنقها، وقالت لي: "أريد الاستحمام وأنت ستخدمني، أغلق الباب." أطعتها

"والآن انزل السلالم وتأكد أن كل شيء مغلق أيضًا."

وبينما نزلت السلم الحلزوني الذي يؤدي من غرفتها إلى الحمام، ترنحت قدماي وكان علي أن أسند نفسي بالدرابزين، وعدت بعد التأكد من أن باب الحديقة مغلق. فاندا كانت جالسة على السرير بشعر مرسل، وملتحفة في سترة المخمل الخضراء المحددة بالفرو.

لمحة سريعة كشفت لي أنها لا ترتدي شيئًا سوى فرائها، كان ذلك مخيفًا لسبب غير مفهوم، شعرت وكأنني رجل محكوم عليه بالإعدام، والذي أدرك أنه في طريقه للسقالة، وبدأ يرتعش حينما رآها.

"تعال غريغور، خذني بين ذراعيك"

" ماذا تعنين مولاتي؟"

"احملني، هل فهمت؟"

حملتها، وضعت ذراعيها حول عنقي، وببطء نزلت السلالم، شعرها يمس برفق خدي من وقت لآخر، وقدمها ترتاح بعذوبة أمام ركبتي. ارتعشت تحت وطأة الجمال الذي كنت أحمله، وظننت أنني قد أسقط في أي لحظة. الحمام عبارة عن بهو مستدير وفسيح، مضاء بضوء خافت قادم من القبة الزجاجية الحمراء على السقف.

مدت اثنتان من أشجار النخيل أوراقًا واسعة مثل سقف أخضر فوق أريكة المخمل الحمراء، ومن هنا يؤدي سجاد أحمر إلى حوض الاستحمام الرخامي الذي يقع في المنتصف.

وعندما أنزلتها على الأريكة قالت: "هناك شريطة خضراء على منضدتي في الأعلى، أحضرها لي واجلب السوط أيضًا معك."

توجهت إلى الطابق العلوي وعدت مرة أخرى، راكعًا وضعتها في يدي مولاتي، وبعدها جعلتني أعقد شعرها الكثيف المشحون بالشريطة الخضراء.

وبعد ذلك قمت بتحضير الحمام بشكل أخرق لأن يديّ وقدميّ رفضتا الامتثال لما أريد، شعرت من وقت لآخر أنني مجبر على النظر إلى جميلتي وكأن هناك قوى سحرية تدفعني لذلك.

كانت متمددة على الوسائد المخملية الحمراء، وجسدها الكريم يومض هنا وهناك تحت طيات الفراء، وأدركتُ وهج الترف والشهوانية الكامن في هذا اللحم الذي أخفت نصفه وكشفت عن نصفه الآخر عمدا. تضخمت مشاعري عندما امتلأ الحوض، وبحركة واحدة ألقت ڤاندا بعباءة الفرو ووقفت أمامي مثل إله في تريبونا.

وفي تلك اللحظة بدت وكأنها قديسة بريئة في جمالها العاري كما هو تمثال إلهة الحب، سقطت أمامها على ركبتي وضغطت بشفتي على قدميها.

روحي التي ضربتها عاصفة من المشاعر في وقت مضى، فجأة وفي تلك اللحظة كانت هادئة تمامًا، شعرت أنه لا يوجد هناك أي أثر من القسوة في فاندا، وببطء نزلت السلالم، وكنت قادرًا على تأملها بمتعة ونفس مطمئنة، غير ممسوس بذرة واحدة من العذاب أو الرغبة، أستطيع رؤية جسدها يومض من خلال المياه البلورية، والمويجات التي أثارتها والتفت بدلال حولها.

كم كان مُحقًّا متذوق الجمال العدمي عندما قال: إن التفاحة الحقيقية أكثر جمالا من تفاحة على لوحة، والجسد الحي أكثر جمالا من ڤينوس الحجرية. نشوة صمت تغلبت علي تمامًا عندما نهضتْ من حوض الاستحمام، قطرات الماء الفضية والضوء الوردي يندفق على جسدها.

لففتُ منشفة الكتان عليها مجففا جسدها الرائع، واستولى علي ذات النعيم الهادئ، حتى عندما رفعتْ قدمها وثبتتها علي مسند أقدام، ثم استراحت على الوسائد في عباءتها المخملية الكبيرة، والفروة اللينة تداعب بشراهة جسدها الرخامي البارد، تتمدد ذراعها اليسرى التي تسند جسدها عليها مثل بجعة نائمة وسط أكمام الفراء الداكنة، بينما يدها اليمنى تلاعب السوط بلا مبالاة. بالصدفة وقعت عيناي على المرآة الكبيرة المعلقة على الجدار المقابل، وصرختُ؛ لأنني رأيت انعكاساتنا في إطارها الذهبي كصورة ذات جمال مهيب. كان أمرًا غريبًا جدًا، خياليا إلى درجة أنني شعرت بانقباض مفاجئ من الندم، لأن خطوطها العريضة وألوانها سوف تتلاشى مثل ضباب.

سألتني فاندا: "ما الأمر؟"

أشرتُ إلى المرآة، فقالت: "آه، نعم إنها جميلة جدًا، من المؤسف أنه لا يمكننا التقاط هذه اللحظة والاحتفاظ بها إلى الأبد."

سألت: "ولم لا؟ ألن يكون أي فنان، حتى أكثرهم شهرة فخورا إذا سمحتِ له بتخليدك بفرشاته؟ أرتعد لفكرة أن هذا الجمال المهيب، تلك العينين الخضراوين المتسمتين بالغموض، والشعر البري المشتعل، وكل عظمة وبهاء هذا الجسد سوف سيضيع إلى الأبد، هذه الفكرة تملؤني رعبا من الفناء، ولكن أيدي الفنان يجب أن تحفظكِ من كل هذا، لا يجوز لك أن تختفي إلى الأبد مثل بقيتنا دون أن تتركي أثرًا لوجودك، يجب أن تعيش صورتك طويلًا حتى بعد أن تتحولي إلى غبار، يجب أن يتغلب جمالك على الموت."

ابتسمت قائدا وقالت: "يا للأسف! لم يعد في عصرنا وجود لتيتيان أو رافائيل في أي مكان في إيطاليا، ولكن ربما يعوض الحب عن العبقرية، من يعرف ربما جرمانينا الصغير يفعل..."

"نعم ينبغي أن يرسمك... ويجب أن أتأكد بنفسي أن الحب يندمج بألوانه في اللوحة."

***

الرسام الصغير أنشأ مرسمه في الڤيلا، وهو الآن واقع تمامًا في شباكها، لقد بدأ للتو برسم المادونا، مادونا بشعر أحمر وعيون خضراء! إن مثالية الألمان هو ما يمكّنه من محاولة خلق بورتريه عذري لمثل هذه المرأة، المسكين في حقيقة الأمر حمار أكبر مني، ومن سوء الحظ أن تيتانيا اكتشفت آذان الحمار في مؤخرة رؤوسنا، والآن هي تضحك بسخرية منا، وكيف تضحك يا إلهي!! يمكنني أن أسمع إيقاعات ضحكتها قادمة من مرسمه وأنا أقف منتظرا تحت نافذتها المفتوحة.

"هل هذه أنا؟ أمر لا يصدق! لابد أنك مجنون حتى ترسمني مثل مادونا!" وانفجرت ضاحكة مرة أخرى.

" انتظر لحظة! سوف أريك صورة أخرى لي، أنا رسمتها ويجب عليك تقليدها."

وظهر رأسها من خلال النافذة، وشعرها يشتعل تحت أشعة الشمس.

"غريغور!"

صعدت السلالم مسرعا، عبرت الصالة المفتوحة ثم المرسم، أمرت ڤاندا حال رؤيتي: "خذه إلى الحمام" ثم اختفت بعد ذلك.

دخلنا البهو المستدير وأغلقنا الباب من الداخل، بعد لحظات قليلة وصلت ڤاندا، لا ترتدي شيئًا سوى فروها، والسوط في يدها، نزلت السلالم وتمددت على الوسائد المخملية كما فعلت سابقا.

استلقيت عند أقدامها ووضعت إحداهما فوقي، بينما يدها اليمنى تلاعب السوط وقالت: "انظر إلي، بنظراتك العميقة المتطرفة، نعم هذه هي."

تحول الرسام إلى شحوب رهيب، التهم المشهد بعينيه الزرقاوين الحالمتين والجميلتين، فتح شفتيه لكنه بقي صامتا.

"حسنا، كيف تحب أن تكون هذه الصورة؟"

هتف الألماني: "نعم هكذا أود أن أرسمك."

ولكن كان من الصعب تحديد ما إذا كان تكلم بلغة محكية، لقد كان أشبه بأنين لروح مريضة انحدرت إلى الهاوية.

***

تم الانتهاء من الرسم الأولي بالفحم، وتم رسم الرأس والصدر أيضًا، أصبح وجهها الشيطاني مرئيا تحت بضع ضربات جريئة من الفرشاة، ومضت الحياة في عينيها الخضراوين. وقفت ڤاندا أمام اللوحة وذراعاها متشابكتان على صدرها.

قال الرسام الذي أصبح شاحبا شحوب الموت: "هذه اللوحة على غرار العديد من المدارس الفينيسية، تتعمد أن تكون بورتريه وقصة في الوقت ذاته"

تساءلت ڤاندا: "وماذا ستطلق عليها؟ ماذا حل بك، هل أنت مريض!"

"أخشى أنني..." بدأ موجها نظرة ظمأى للمرأة الجميلة في الفراء: "ولكن دعونا نتحدث عن اللوحة."

"نعم، لنتحدث عن اللوحة."

"أتصور أن إلهة الحب ڤينوس تنزلت من جبل أوليمبوس لزيارة بشري ما، وحتى لا تموت بردًا في عالمنا الحديث، لفت جسدها السامي في فروة ضخمة ثقيلة، وأدفأت قدميها على ظهر حبيبها الساجد أمامها، أتصور ما تفضله هذه الطاغية الجميلة، تفضّل الذي يُجلد عندما تتعب خليلته من تقبيله، والذي يحبها بجنون أكثر حينما تدوسه تحت أقدامها، لابد أن أطلق على هذه اللوحة: ڤينوس في الفراء"

***

يعمل الرسام ببطء شديد، لكن شغفه يتضخم بسرعة، أخشى أن ينتهي

به الأمر إلى الانتحار.

تمازحه بالأحاجي التي لا يستطيع حلها، وتتهكم به حتى تسلي نفسها.

خلال جلوسنا كانت تقضم الحلويات وتلف أغلفتها الورقية إلى كريات صغيرة ثم ترميه بها.

أردف الرسام: "أنا سعيد أنك بمزاج جيد، لكن وجهك فقد تمامًا التعبير الذي أحتاجه لإنهاء لوحتي."

"التعبير الذي تحتاجه للوحتك!" ابتسمت وأكملت: "انتظر لحظة."

نهضت ثم ضربتني بالسوط، فغر الرسام فاهه بدهشة طفولية، واختلط شعور بالرعب والإعجاب في وجهه، وعندما كانت تجلدني بدأ وجهها يستعيد شيئًا فشيئًا قسوته، ومسحة الازدراء التي تطاردني وتسكرني.

صرختْ: "هل هذا هو التعبير الذي تحتاجه للبورتريه؟"

صُعق الفنان وأخفض عينيه ليتفادى نظراتها الحادة.

"نعم إنه هو..." تلعثم وتابع: "لكنني لا أستطيع الرسم بعد الآن."

أردفت قائدا باحتقار: "ما الأمر؟ ربما يمكنني مساعدتك؟"

صرخ الجرماني كما لو كان مأخوذًا بالجنون: "نعم، اضربيني بالسوط أيضًا."

"أوه! بكل سرور." أجابت هازة كتفيها وتابعت: "لكنني لوكنت سأضربك لابد أن أفعل ذلك بشكل جيد."

صرخ الفنان مرة أخرى: "اجلديني حتى الموت."

سألته مبتسمة: "هل تسمح لي بربطك؟"

"نعم."

تركت ڤاندا الغرفة للحظة ثم عادت مع حبال، وسألت باستهزاء: "إذن، هل أنت شجاع بما يكفي لتضع نفسك تحت رحمة ڤينوس في الفراء، بين يدي الطاغية الجميلة؟"

أجابها بصوت يشبه صوت رجل يحتضر: "نعم، اربطيني."

ربطت ڤاندا يديه خلف ظهره، ولفت حبلًا حول ذراعيه وآخر حول جسده، قيدته في قضبان النافذة، ثم خلعت فراءها، التقطت السوط وتقدمت إليه حتى انتصبت أمامه.

كان لهذا المشهد تأثير لا يمكن وصفه علي، كنت مأخوذًا، شعرت بضربات قلبي عندما رفعت ذراعها عاليا لتوجه بابتسامة ضربتها الأولى، والسوط يهسهس في الهواء، وهو يجفل حينما يشعر به فوق جلده، ثم تبدأ بضربه دونما توقف، فمها نصف مفتوح وأسنانها تتوهج بين شفاهها القرمزية، حتى العينين الزرقاوين في حالة يرثى لها تتوسل الرحمة، آه إنه لا يوصف.

هي الآن قاعدة أمامه، وحيدة وهو يعمل على رأسها، وقد وضعتني في الغرفة المجاورة وراء الستارة الثقيلة، حيث يمكنني رؤية كل شيء، لكن لا أحد يستطيع رؤيتي. ماذا تنوي فعله الآن؟ هل هي تخشاه؟ لقد دفعته للجنون بما فيه الكفاية؟ أم إنها تنوي تعذيبًا جديدًا لي؟ ترتعد ركبتاي من هذه الفكرة.

إنهما يتحادثان، لقد أخفض صوته بحيث لا يمكنني فهم كلمة واحدة مما يقول، وهي كذلك فعلت المثل، ماذا يعني كل هذا؟

هل هناك اتصال خفي بينهما يمكّنهما من فهم أحدهما الآخر؟ أنا أعاني

بشكل فظيع، وقلبي على وشك الانفجار.

وها هو الآن يركع أمامها، يحتضنها ويرمي برأسه الثقيل على صدرها. وهي المرأة القاسية تضحك بصوت عال، ثم سمعتها تقول له:

"آه، أنت تحتاج السوط مرة أخرى."

وهو يصرخ: "أيتها المرأة! يا إلهي هل أنت بلا قلب؟ ألا تعلمين ما هو الحب؟ أن يتم استهلاكك بالتوق والعاطفة؟ ألا يمكنك تصور ما أعانيه؟ ألا تشفقين علي؟"

أجابت بازدراء :"لا! لكنني أمتلك السوط"

وجذبته بسرعة من جيب معطفها، وضربته تمامًا في وجهه، ارتفع وترنح إلى الوراء.

ثم قالت بلا اكتراث: "أيمكنك الرسم الآن؟"

لم يجبها، لكنه قعد في مكانه أمام مسند لوح الرسم.

***

كانت اللوحة رائعة جدًا، بورتريه لا يمكن أن يكون الشبه فيه أفضل من ذلك، إنها مثالية بسبب كل هذا الألوان المتوهجة، فوق الطبيعية والشيطانية حتى، لقد وضع الفنان في عمله كل معاناته، كل عشقه وبؤسه.

***

الآن هو يرسمني، ونحن نقضي عدة ساعات يوميا مع بعضنا. اليوم

التفت إلي فجأة بصوت مرتجف وسألني: "أتحبها؟"

"نعم"

"وأنا أيضًا أحبها" اغتسلت عيناه بالدموع، بقي صامتا للحظة وواصل الرسم.

"لدينا جبل في ألمانيا حيث أقامت" ثم تابع وهو يغمغم لنفسه: "هذه المرأة... إنها شيطان."

***

عندما انتهت اللوحة، أصرت ڤاندا على الدفع له بسخاء كما تفعل الملكات.

"لكنكِ قد دفعتِ لي بالفعل" قالها بابتسامة معذبة رافضا عرضها، وقبل رحيلة فتح سرًا ملفه وسمح لي بنظرة سريعة داخله، كنت مصدوما برؤية وجهها متفرسا في وجهي، بدت حقيقية كأنها خرجت من المرآة.

أردف: "سأبقي على هذه، إنها لي لا يمكنها أخذها مني، لقد اكتسبتها بدم قلبي."

***

قالت لي ڤاندا اليوم: "أنا حقًا أشفق على هذا الرسام المسكين، من غير المعقول أن تكون فاضلًا بهذا القدر، ألا تعتقد هذا أيضًا؟"

لم أجرؤ على الرد.

"أوه، نسيت أنني أتحدث مع عبد، أنا بحاجة للهواء النقي، أريد أن أصرف ذهني، أن أنسى بسرعة! أحضر العربة!"

***

ملابس رائعة أخرى، حذاء روسي نصفه الأعلى من مخمل بنفسجي مزرق محدد بالفرو، فستان من المادة نفسها مزين بشرائط من الفرو، وسترة قصيرة ضيقة ومحددة بالفرو أيضًا تتناسب مع البقية. ارتدت قبعة طويلة من الفرو على نمط كاثرين العظيمة، وعليها ريشة مثبتة بمشبك من الألماس، وشعرها الأحمر ينسدل على كتفيها.

صعدَت إلى مقعد السائق، واتخذتْ مقعدًا خلفها، كيف تنهال بالسوط على الخيول يا إلهي! طارت العربة بسرعة شديدة الخطورة.

تبدو كأنها اليوم تريد جذب الانتباه بأي ثمن، وقد نجحت في ذلك تمامًا. إنها لبؤة كاشينا. الناس تلقي عليها التحايا من عرباتها، ويحتشدون في مجموعات لمناقشتها، لكنها تتجاهلهم جميعا، وبين حين وآخر ترد فقط على كبار السن بإيماءة.

وفجأة ظهر شاب على حصان أسود رشيق، وحين رأى ڤاندا أبطأ من سرعة حصانه ليجعلها تمر من أمامه، التقت عيناهما، ونظرت اللبوة إلى الأسد.

حينما مرت من أمامه غرقت في قوة عينيه المغناطيسية، حتى أن رأسها استدار تدريجيا لتنظر إليه.

توقف قلبي عن النبض تمامًا عندما رأيت الذهول والنشوة التي ألقتها عليه، لقد استحق هذا، لأنه في الواقع نموذج جليل للإنسان، يا إلهي! لم أر

مثيلًا له بين الأحياء، لا يشبهه إلا نسخته المحفورة على الحجر أبولو بلفيدير! له الرشاقة ذاتها ولكن بعضلات فولاذية، الملامح الدقيقة، الشعر المائج نفسه... وما يجعله استثنائيا أنه غير ملتح، ولوكان وسطه أشد نحولاً لأمكن للمرء أن يجعله يتنكر كامرأة.

ولكنه يمتلك هذا التعبير الغريب للفم، شفة الأسد تكشف عن الأسنان تحتها، ما يضفي وميضا من القسوة على وجهه، أبولو يسلخ مارسياس!

يرتدي حذاء أسود طويلًا، بنطالا ملائما من الجلد الأبيض، ومعطفًا من الكتان الأسود على طراز الفرسان الطليان، مطرفا بفراء الأستراخان، على شعره الأجعد هناك يستقر طربوش أحمر.

لا يمكنني أن أبقى لامباليا أمام سلطته الأيروتيكية، وامتلأ قلبي بإعجاب شديد تجاه سقراط الذي كان لديه من القوة ما يجعله فاضلًا أمام إغواء السيبياديس.

لم يسبق لي أن رأيت لبؤتي متحمسة جدًا، اشتعلت وجنتاها عندما قفزت من العربة وأسرعت إلى الڤيلا، صعدت إلى الطابق العلوي مع إيماءة آمرة بأن أتبعها.

تذرع غرفتها جيئة وذهابا بخطوات طويلة، ثم قالت بحماسة مزعجة: "يجب أن تعرف من هو الرجل الذي رأيناه في كاشينا حالا... آه، يا له من رجل! هل رأيته؟ ما رأيك فيه؟ تكلم!"

أجبتها بصوت خافت: "إنه وسيم"

"وسيم جدًا" صمتت قليلا وأسندت نفسها على مؤخرة الكرسي، وتابعت: "لقد اختطف أنفاسي."

"أستطيع أن أفهم الانطباع الذي خلفهُ فيك، وأنا أيضًا لقد اجتاحني

تمامًا، في الحقيقة لقد تشكلت في عقلي خيالات جامحة أرى فيها..."

"ترى فيها أن هذا الرجل هو عشيقي ويجلدك من أجل متعتك الغامرة."

ثم انفجرت بضحكة مجلجلة وتابعت: "لقد انتهيت منك الآن، اذهب!"

***

حصلت على المعلومات المطلوبة قبل هبوط الليل. عندما عدت كانت لا تزال قائدا ترتدي ملابسها البديعة، ولكنها لا زالت مستلقية على المتكأ العثماني، وجهها مدفون في يديها، وشعرها أشعث مثل عرف الأسد.

"ما اسمه؟" سألت بهدوء غريب.

"ألكسيس بابدابليس"

"يوناني إذن!"

أومأت برأسي.

"هل هو صغير جدًا؟"

"بالكاد يتجاوز عمرك، يُقال إنه تلقى تعليمه في باريس وإنه ملحد، حارب ضد الأتراك في كانديا، وقد تميز ليس فقط بسبب قسوة كارهي عرقه بل أيضًا بفضل شجاعته."

"رجل حقيقي." أردفت وعيناها تلمعان.

"إنه يعيش في فلورنسا في الوقت الحالي" تابعت: "ويقال إنه ثري جدًا..."

قاطعتني بحدة: "أنا لم أسألك عن ذلك، هذا الرجل ذو سلطة، ألست

خائف منه؟ أما أنا فإنني أخشاه، ألديه زوجة؟"

"لا"

"عشيقة؟"

"ولا عشيقة."

"ما المسارح التي يحضرها؟"

"سيكون الليلة في مسرح نيكوليني، حيث تمثل فرجينيا ماريني وسالفاني، إنهما من أعظم الفنانين الباقين على قيد الحياة في إيطاليا وربما في أوروبا كلها."

أمرت: "افعل ما تستطيعه للحصول على مقصورة هناك، بسرعة!"

"ولكن يا سيدتي..."

"هل تتوق للسوط؟"

***

"تستطيع الانتظار في الردهة" قالتها لي حينما وضعت منظار الأوبرا وأعددت مسند قدميها. أسندتُ جسدي على الجدار، بالكاد أستطيع الوقوف، متخم بالغيرة والغضب... لا، الغضب ليس الكلمة الصحيحة، إنه الكرب البشري، بإمكاني رؤيتها، بفستان المواريه الأزرق وعباءة الفراء مستريحة على أكتافها العارية، مقصورتها مواجهة لمقصورته، أستطيع رؤيتهما يلتهمان بعضهما بأعينهما.

بماذا يهتم المشاهدون؟ باميلا جولدوني، سالفاني، ماريني؟ لا أبدًا

فالمسرح لهما وحدهما، الجمهور والعالم بأكمله يشاهدهما، كل شيء غير موجود سواهما، وأنا؟ ما أنا هذه اللحظة؟

***

تحضُر اليوم حفلة راقصة للسفير اليوناني ، هل تعلم من ستلتقي هناك؟ على أية حال لقد ارتدت ملابسها استعدادا للمناسبة؛ فستان من الحرير الأخضر يطوّق صورتها الإلهية كاشفا عن صدرها ويديها، وشعرها مربوط في عقدة مشتعلة واحدة، مزين بزنبق المياه وغصينات خضراء متشابكة تندفع ساقطة على مؤخرة عنقها.

لم يعد هناك أي أثر للانفعال، لقد اختفت الحمى والهياج، هي الآن هادئة، هادئة جدًا لدرجة أن دمي تجمد في عروقي، وقلبي يزداد برودة أمام نظرتها. ببطء وبفخامة صعدت السلالم الرخامية متيحة لمعطفها الثمين الانزلاق، واندفعت بسأم إلى الغرفة التي كانت تحتوي على سحابة فضية كونتها آلاف من الشموع، لوهلة تتبعتها عيناي في حالة من الذهول، ومن ثم لاحظتُ أنني كنت أحمل فراءها في يدي، لا يزال محتفظا بحرارة جسدها، أودعته قبلة وامتلأت عيناي بالدموع.

ها هو قد وصل، في معطف من المخمل الأسود مبطن ببذخ بفرو أسود، يبدو متغطرسا، وسيما مستبدا يتلاعب بحيوات الرجال وأرواحهم.

يقف عند المدخل ناظرا حوله بزهو، وعندما رآني حدق فيَّ لفترة طويلة مما جعلني غير مرتاح.

وتحت نظراته الجامدة استولى علي مرة أخرى ذعر رهيب، استحوذ علي هاجس بأن هذا الرجل سوف يأسرها ويستعبدها، لديه القوة ليخضعها

تمامًا، شعرت بالنقص أمام رجولته، وكنت مشحونا بالحسد والغيرة.

أنا لست إلا كائنًا ضعيفًا ومضطربًا، إن ما هو أكثر مذلة هو أنني أود أن أكرهه لكنني لا أستطيع، لماذا لاحظني أنا وحدي رغم كل هؤلاء الخدم؟

لوح لي بإيماءة أرستقراطية لأجيء عنده، وأنا لبيت دعوته ضد مشيئتي. أمرني بهدوء: "ساعدني في خلع معطفي."

جسدي بأكمله يرتعد بالعصيان لكنني أطعت بخنوع عبد.

***

قضيت الليل بطوله في حجرة الانتظار أهذي مثل محموم، صور غريبة تحوم أمام عيني، رأيت اجتماعهما، تبادلهما الطويل للنظرات، أراها تدور في قاعة الرقص بين ذراعيه، دائخة ومرتاحة على صدره بعينين نصف مغلقتين، لم أره عبدًا تحت ظل قدسية كل هذا الحب، بل سيدا مستلقيا على المتكأ العثماني وهي عند قدميه، أرى نفسي الآن راكعًا أمامه، منتظرا وصينية الشاي ترتجف بين يداي، وأراه يمسك بالسوط.

كل الخدم يتحدثون عنه الآن، مثل امرأة، يعلم أنه جميل ويتصرف وفقًا لذلك، متأنق دائمًا، يغير ملابسه أربع أو خمس مرات في اليوم الواحد، كمومس فارغة. تمت رؤيته في باريس يرتدي مثل امرأة، والرجال ينهالون عليه برسائل الحب. مغني إيطالي شهير بسبب فنه وكثافته العاطفية، شق طريقه إلى منزله، راكعًا أمامه مهددا بالانتحار إذا لم يكن له.

"أنا آسف" أجاب اليوناني بابتسامة: "أود أن أمنحك ما تريده، لكنني لا يمكن إلا ان أوقع على مذكرة موتك، لأنني رجل."

***

قاعة الرقص فارغة تقريبًا، ولكن فيما يبدو ليس لديها أي نية للخروج.

تسلل ضوء الفجر من خلال الستائر، وأخيرًا سمعت صوت حفيف ثوبها الثقيل الذي يمتد خلفها مثل موجة خضراء، إنها تتقدم ببطء خطوة بعد أخرى، منخرطة في حديث معه، بالكاد خرجت إليها، إنها لا تكلف نفسها عناء إصدار الأوامر لي.

أمرني هو: "معطف السيدة" بطبيعة الحال لم يفكر حتى في مساعدتها بنفسه.

حينما كنت أساعدها في فرائها، كان هو يقف جانبا بذراعين مطويتين، وعندما ركعت على ركبتي واضعا حذاءها المزين بالفراء في قدميها انحنت قليلا على كتفه وقالت:

"وماذا حدث للبؤة؟"

أردف اليوناني: "عندما تعرض الأسد الذي اختارته وتعيش معه للهجوم من قبل آخر، استلقت اللبؤة بهدوء تشاهد المعركة، حتى إن خسر صاحبها فهي لن تأتي لإنقاذه، بل تنظر بلا مبالاة وهو ينزف تحت مخالب خصمه، ثم ترافق المنتصر، الأقوى، هذه هي طبيعة الأنثى."

في تلك اللحظة نظرت إلي لبؤتي بغرابة جعلتني أرتجف، دون أن أعرف لماذا! وضوء الفجر الأحمر غسلنا نحن الثلاثة بالدم.

***

لم تذهب إلى السرير، ولكنها خلعت فستان الرقص وحلت شعرها، ثم أمرتني بإشعال النار، وجلست بجانب الموقد محدقة في اللهيب.

سألتها بصوت متداعٍ: "هل أنت بحاجة إلى شيء آخر سيدتي؟"

هزت قائدا رأسها.

تركتُ الغرفة مارا من خلال الرواق وقعدت على إحدى الدرجات المؤدية إلى الحديقة. هبت رياح شمالية حاملة معها رطوبة باردة من الأرنو، التلال الخضراء تمتد تحت ضباب وردي، دخان ذهبي يكتنف البلدة ويتصاعد نحو قمة الكاتدرائية، وهناك نجمات قليلة تتلألأ في السماء الشاحبة. انتزعتُ معطفي وضغطت جبيني المحترق على الرخام. كل ما حدث حتى الآن يبدو لي كلعبة طفل، ولكن الأمور بدأت تتخذ منحنى خطيرا، خطيرا بشكل رهيب.

كنت متوقعا حدوث كارثة.. إنني أراها أمامي، يمكنني لمسها بيدي، ولكنني افتقر إلى الشجاعة للذهاب تجاهها ومواجهتها بنفسي. كنت رجلًا محطّما. لأكون صادقًا، لا المعاناة ولا الآلام قد أخافتني، كنت مسكونا بخوف أوحد فقط، وهي فكرة فقدان الشخص الذي أحبه بشغف، الخوف كان ساحقًا ومروعًا حتى إنني بدأت أنشج مثل طفل.

***

ظلت طوال اليوم في غرفتها، والزنجية هي من تخدمها. عندما ارتفعت نجمة المساء في السماء، رأيتها تمر عبر الحديقة، تبعتها بخلسة، ورأيتها تدخل معبد ڤينوس، تسللت خلفها وأطللت من خلال شق الباب، وقفتْ أمام التمثال الإلهي ويداها مجتمعتان في حالة صلاة، والضوء المقدس من نجم

الحب ألقى بشعاع أزرق عليها.

***

في تلك الليلة على أريكتي كنتُ ممتلئًا بالذعر من فقدانها، وطغت على مشاعر الشك في أنني قد قررت لعب دور البطل الماجن.

أضأت مصباح الزيت الأحمر الذي يتدلى في الممر تحت صورة القديس، وتسللت إلى غرفتها مغطيًا الضوء بيدي.

كانت اللبؤة المهزومة صورة من الاستنزاف، سقطت نائمة على ظهرها، متمددة على الوسائد، يداها مضمومتان وتتنفس بصعوبة، بدت كأنها وسط حلم مفزع، ببطء سحبتُ يدي سامحًا للضوء الأحمر أن ينتشر على وجهها البديع، ولكنها لم تستيقظ.

برفق وضعت المصباح على الأرض وجثوت على ركبتيّ بجانب سريرها مريحًا رأسي على ذراعها الناعمة والمتوهجة.

تحركتْ قليلا لكنها لم تستيقظ، لا أعلم كم من الوقت ظللتُ في وضع السجود هذا، في جوف الليل، تحول الرماد إلى حجر تحت وطأة العذاب الرهيب، نوبة من الارتجاف العنيف اجتاحتني، وأخيرًا كنت قادرًا على البكاء، تدفقت دموعي على ذراعها، ارتعشتْ عدة مرات حتى استيقظت أخيرًا، فركت عينيها ونظرت إلى وجهي.

"سيڤرين!" صرخت خائفة أكثر مما هي غاضبة.

كنت غير قادر على الرد.

أردفت مرة أخرى بهدوء: "سيڤرين! ما الأمر؟ هل أنت مريض؟" كان

صوتها رحيما جدًا، طيبًا وحنونًا، وكان ذلك مثل حديد ملتهب قبض على صدري بإحكام، وبدأت أشهق بصوت عال.

"سيڤرين يا صديقي المسكين، يا صديقي التعيس." داعبت بلطف شعري وتابعت: "أنا آسفة جدًا لأجلك لكنني لا أستطيع مساعدتك؛ بأنقى نية في العالم أريد ذلك لكنني أعلم أنه لا شيء بإمكانه أن يشفيك."

تنهدتُ بمرارة: "آه ڤاندا لابد أن هناك شيئًا بإمكانك فعله"

"ماذا سيڤرين؟ ماذا تعني؟"

"ألا تحبينني أبدًا؟ ألم يتبق هناك ولو القليل من الشفقة تجاهي؟ أم إن الوسيم الغريب قد استولى على كل شيء تمامًا؟"

أجابت بلطف بعد لحظة من الصمت: "لا يمكنني أن أكذب، لقد ترك تأثيرًا علي أنا غير قادرة بعد على فهمه وتحليله، وأنا الآن أعيش في ذعر ومرارة، لقد رأيت هذا الشعور موصوفا في الشعر وفوق خشبة المسرح، ولكنني اعتقدت دائمًا أنه من نسج الخيال. آه، هو رجل مثل أسد، قوي، وسيم، متغطرس ولكنه حساس جدًا وليس وحشيا مثل رجال المدن الشمالية، أنا آسفة لأجلك سيڤرين صدقني ولكنني يجب أن أمتلكه، ما الذي أقوله! يجب أن أمنحه نفسي"

"فكري في سمعتك ڤاندا، لقد ظلت حتى الآن نقية بلا شائبة." وصحت متابعا: "حتى لو لم أعد أعني أي شيء لك..."

"لقد فكرت في ذلك، أريد أن أكون قوية بقدر ما أستطيع..." دفنت وجهها بخجل في الوسائد وأكملت: "أريد أن أصبح زوجته...أريد أن أكون له."

"ڤاندا!" لهثتُ مسكونا بكرب قاتل جعلني أفقد السيطرة على نفسي تماما

"أتريدين أن تكوني زوجته، أن تنتمي له إلى الأبد! آه لا تدفعيني بعيدًا عنكِ، إنه لا يحبك."

صرخت مشتعلة: "من قال لك هذا؟"

"إنه لا يحبكِ،" وتابعت هائجًا: "أنا أحبكِ، أنا أعشقكِ، أنا عبدكِ، وأريدك أن تدوسيني تحت أقدامك، أريد أن أحملك بين ذراعي إلى الأبد."

قاطعتني بحدة وسألت مرة أخرى: "من قال لك إنه لا يحبني؟"

"آه كوني لي! كوني لي!" واعترفتُ لها: "لا يمكنني أن أعيش، لا يمكنني أن أوجد بدونك، ارحميني فاندا، ارحميني!"

حدقت في وجهي بنظرتها الباردة المتبلدة، ابتسمت بخبث وقالت: "أنت تقول إنه لا يحبني، حسنا إذن دع هذه الفكرة تعزيك"

ثم التفتت إلى الجانب الآخر وأدارت ظهرها لي باحتقار شديد.

"يا إلهي!" أجهشتُ بالبكاء: "هل أنت امرأة بلا لحم ودم، ألا تمتلكين قلباً مثلي؟"

أجابت ببرود: "أنت تعرف ما أنا، أنا امرأة من حجر، أنا ڤينوس في الفراء، مثلك الأعلى، اركع وصلّ لي."

ناشدتها: "ڤاندا! ارحميني!"

بدأتْ في الضحك. دفنتُ وجهي في الوسائد سامحًا لدموعي بالانحدار حتى تُخفّف من ألمي.

ساد الصمت فترة طويلة، ثم ارتفعت ڤاندا ببطء وقالت: "أنت تضجرني"

"فاندا!"

"أنا مرهقة، دعني أنم."

"الرحمة فاندا!" ناشدتها: "لا ترفضيني، لا رجل، لا أحد سوف يحبك كما أفعل أنا."

"دعني أنم." وأدارت ظهرها لي مرة أخرى.

قفزتُ إلى الأعلى والتقطتُ الخنجر المعلق بجانب سريرها، سحبته من غمده ووجهته تجاه صدري.

تمتمتُ: "سوف أقتل نفسي هنا، أمام عينيك"

أجابت فاندا بلا مبالاة: "افعل ما يحلو لك، ولكن دعني أنم." تثاءبت بصوت عال وتابعت: "أنا مرهقة جدًا."

كنتُ مصعوقًا للحظة، ثم بدأتُ بالضحك والبكاء في الوقت نفسه، وفي النهاية وضعت الخنجر في حزامي وسقطتُ مرة أخرى على ركبتي أمامها.

توسلتُ إليها: "فاندا اسمعيني.. فقط بضع لحظات."

"أريد الذهاب إلى النوم، ألا تسمع؟" صرّختْ وقفزت خارج السرير ثم ركلتني بقدمها: "هل نسيت أنني سيدتك؟"

عندما لم أتزحزح إنشا واحدا، التقطت السوط وضربتني به. نهضتُ، وضربتني مرة أخرى وهذه المرة تمامًا في وجهي.

"بهيمة! عبد!"

بقبضة يدي نهضتُ، وغادرت غرفة نومها بعزم مفاجئ، قذفتْ السوط جانبًا وانفجرت بضحك مجلجل. أتصور أن تصرفي المسرحي طريف جدًا.

***

عقدت العزم على أن أقطع نفسي عن هذه المرأة متحجرة القلب والتي عاملتني بوحشية شديدة، وها هي الآن تستعد لخيانتي كمكافأة على إخلاصي لها، وكل ما قد عانيته لأجلها.

حزمتُ كل أمتعتي القليلة في صرة وكتبتُ لها التالي:

"مدام،

لقد أحببتك كما يحب رجل مجنون، وقدمت نفسي إليك كما لم يفعل رجل من قبل، ولكنك أذيتِ أقدس مشاعري، ولعبتِ بوقاحة لعبتك التافهة معي. لطالما كنتِ مجرد امرأة قاسية عديمة الرحمة، كنتُ لا أزال قادرًا على حبها، ولكنك الآن تصبحين مبتذلة. أنا لم أعد العبد الذي سمح لك أن تسحقيه وتجلديه بالسوط؛ أنت بنفسك قد حررتني، وها أنا الآن أترك المرأة التي لا أستطيع الآن إلا كرهها واحتقارها.

سيفرين كيوزميسكي"

سلمتُ هذه الرسالة إلى الخادمة السوداء وهربت بأسرع ما يمكنني.

***

وصلتُ إلى محطة سكة الحديد لاهثًا، وفجأة شعرت بألم حاد يستقر في قلبي وبدأتُ بالبكاء، آه كم هو مهين هذا! إنني أريد الفرار ولا أستطيع، استدرتُ عائدًا ولكن إلى أين؟ إليها؟ المرأة التي أمقتها وأعبدها؟ ومرة

أخرى غيرت رأيي، لا يمكنني أن أعود، أنا لا أجرؤ على ذلك.

ولكن كيف سأغادر فلورنسا؟ أدركت أنني لا أملك أي مال ولا حتى قطعة نقدية واحدة، حسنا سأسافر إذن سيرًا على الأقدام، من الأفضل أن تكون متسولًا صادقًا بدلًا من أن تأكل الخبز من يديْ مومس.

ولكنني لا أستطيع المغادرة، لقد وعدتها، أعطيتها كلمة شرف ولابد لي من العودة، لربما سوف تحررني من عهدي.

بعد بضع خطوات وقفت مرة أخرى، لقد عاهدتها، نعم لقد أقسمت على أن أكون عبدها طالما تمنت هي وحتى ترد علي حريتي.

مشيت عبر كاشينا وصولًا إلى أرنو، حيث تتلاطم الأمواج الصفراء برتابة حول جذوع الصفصاف الوحيدة. جلستُ هناك وألقيتُ آخر اعتبار لي مع الوجود؛ أتحت لحياتي كلها أن تمر أمامي مثل استعراض، ووجدتها ذات شأن بائس، القليل من الأفراح، والكثير من الملل واللا جدوى، وفي المنتصف هناك حصاد وفير من الآلام، من المآسي، المخاوف، الخيبات والآمال التافهة.

فكرت في أمي التي أحببتها بعمق ورأيتها تموت تحت وطأة مرض رهيب، في أخي الذي لقي حتفه في زهرة شبابه دون أن يضع شفتيه على كأس الحياة ويتذوق ملذاتها، فكرت في مرضعتي الميتة، في رفاق طفولتي، في الأصدقاء الذين درسوا معي، في كل هؤلاء الذين يتمددون تحت الأرض الباردة والميتة. فكرت في يمامتي التي اعتادت أن تأتي إلي بهديلها منحيةً بدلا عن الذهاب لشريكها... من التراب وإلى التراب نعود.

انفجرتُ ضاحكًا، انزلقت إلى داخل النهر، ولكنني في نفس الوقت تشبثتُ بغصن صفصاف معلق فوق المياه العكرة.

كما لو أنها رؤيا: المرأة التي تسببت بكل بؤسي ظهرت أمامي، تحوم فوق مستوى الماء، الشمس تسطع من خلال صورتها الشفافة، ورأسها محاط بلهيب أحمر. استدارت نحوي وابتسمت.

***

ها أنا أعود مرة أخرى، نازفًا، رطبًا ومحترقًا بالعار والحمى، لقد سلمت الخادمة رسالتي، أنا مدان، ضائع، وبين يدي المرأة الوحشية التي أهتها الآن.

إنها قد تقتلني، حسنا دعها تفعل، دعها تقتلني لأنني لا أريد العيش بعد الآن، وأنا غير قادر على القيام بذلك بنفسي.

سرت إلى مؤخرة المنزل ورأيتها في الشرفة منحنية على الدرابزين، رأسها تحت ضوء الشمس تمامًا، وعيناها الخضراوان تبرقان.

"ألا تزال على قيد الحياة؟" سألت دون أن تقوم بأدنى حركة. بقيتُ صامتا مطأطأ الرأس.

تابعت: "أعد إلي خنجري، إنه بلا فائدة لك الآن، أنت لم تمتلك حتى الشجاعة لقتل نفسك"

أجبتها مرتعدا من البرد: "لقد أضعته."

نظرت إلي باحتقار: "هل فقدته في أرنو؟" هزّت كتفيها وتابعت: "لا يهم، حسنا إذن لم لم تغادر؟"

تمتمتُ بشيء غير مفهوم.

" أوه، ليس لديك مال" ثم هتفت : "هاك!"

وقذفت حقيبتها بازدراء لا يوصف.

لم التقطها بل تركتها على الأرض وكلانا بقي صامتا لفترة طويلة.

"إذن لا تريد الذهاب؟"

"لا أستطيع"

***

ذهبت ڤاندا إلى كاشينا وإلى المسرح بدوني، وعندما تلقت زيارة كانت لزنجيات هناك يخدمنها، لا أحد سأل عني، كنت أهيم في الحديقة مثل بهيمة أضاعت سيدها.

عندما كنت مستلقيًا بين الشجيرات، مشاهدًا بعضا من العصافير تتقاتل على حفنة من البذور، سمعتُ فجأة حفيف ثوب امرأة.

ڤاندا اقتربت، مرتدية ثوبا من الحرير الأسود مغلقًا باحتشام حتى الرقبة، كان اليوناني معها، مناقشة محتدة تجري بينهما، ولكنني لم أستطع حتى الآن فهم كلمة واحد.. رأيته يركل الأرض، وتتناثر الحصى في جميع الجهات. ضرب الهواء بسوطه، فجفلت ڤاندا.. أكانت خائفة من هجومه؟ هل وصلا إلى هذا الحد؟

لقد غادر، ونادته لكنه لم يسمعها، أو أنه لا يريد سماعها.

هزت ڤاندا رأسها بحزن ثم جلست على أقرب مقعد حجري، مكثت لوقت طويل عائمة في أفكارها.

كنت أشاهدها بمتعة خبيثة، وأخيرًا استعدتُ رباطة جأشي وتقدمتُ تجاهها بنظرات ساخرة.

وقفتْ بسرعة وجسدها بأكمله يرتجف.

"لقد أتيت فقط لأتمنى لك السعادة" تابعت راكعًا لها: " أرى أنك قد وجدتِ سيدك"

هتفت: "نعم، الشكر للرب ليس عبدًا آخر، لقد عانيت بما فيه الكفاية منهم، سيدًا.. المرأة تحتاج سيدًا لتعشقه."

"أنت تعشقينه فانداا" صرخت "أتعشقين هذا البربري؟"

"أحبه كما لم أحب أحدًا من قبل."

"فانداا"

شددت قبضتي ولكن ها هي الدموع تملأ عيني، واستولى علي هذيان بالعاطفة، كنوع من الجنون الحلو.

"حسنا إذن، تزوجيه، دعيه يصبح سيدك، ولكنني أريد أن أبقى عبدك ما حييت."

أردفت: "أتريد أن تبقى عبدي حتى بعد ذلك؟

سيكون هذا ممتعًا لكنني أخشى ألا يقبل ذلك"

"لا يقبل؟"

"نعم، إنه يغار منك، نعم منك أنت، لقد أصر على أن أطردك حالًا، وعندما أخبرته من تكون..."

لهثتُ متفاجئا: "أخبرته؟"

"أخبرته كل شيء، عن قصتنا بأكملها، كل غرائبيتنا، كل شيء، وبدلًا من أن يضحك انفجر غاضبًا وضرب الأرض بقدمه"

"وهدد بضربكِ؟" أخفضت فاندا عيناها وبقيت صامتة.

"نعم، نعم" وتابعت ما أقوله بسخرية: " أنتِ تخافين منه."

رميتُ نفسي عند قدميها وفي وسط اضطرابي احتضنت ركبتيها.

"أنا لا أريد شيئًا منك، لا شيء عدا أن أكون عبدك، قريبًا منك دائمًا، سأكون كلبك..."

وقاطعتني بلا مبالاة: "ألا تدرك أنك تضجرني؟"

قفزتُ على قدمي؛ دمي يغلي.

"أنت لم تعودي قاسية، أنتِ مبتذلة!" قلتها بكل وضوح وصراحة مؤكدًا كل كلمة.

أجابت فاندا وهي تهز كتفيها: "لقد كتبت ذلك بالفعل في رسالتك! رجل عاقل لا يكرر نفسه أبدًا."

قلت محترقا: "إذن كيف تصفين تصرفاتك تجاهي؟"

"أود لو أعاقبك،" أجابت بسخرية وتابعت: "لكنني في هذا الوقت أفضل أن أرد عليك بالمنطق لا بالسوط، ليس لديك الحق في اتهامي، لطالما كنت صادقة معك، ألم أحذرك أكثر من مرة؟ ألم أحبك بكل جوارحي، بشغف، وهل أخفيت بأي طريقة خطورة أن تنحني أمامي وتهب نفسك لسلطتي؟ ألم أخبرك أنني أريد أن تُهيمن علي؟ ولكنك رغبت أن تكون دميتي، عبدي! إن أكثر ما يمتعك هو أن تُركل وتُجلد من قبل امرأة قاسية ومتغطرسة، ماذا تريد الآن؟ هذه الميول الوحشية كانت كامنة داخلي، ولكنك كنت أول من أيقظها، واذا كنت الآن أستلذ تعذيبك وإساءة معاملتك، فإنه خطؤك أنت، أنت خلقت مني ما أنا عليه الآن، وها أنت تلومني على ذلك

بكل ضعف وجبن."

قلت: "نعم أنا مذنب، ولكن ألم أعان بما فيه الكفاية من ذلك؟ ضعي حدا لهذه اللعبة القاسية!"

"هذه بالضبط رغبتي أيضًا." أجابت بنظرة غريبة.

صرختُ بعنف: "فاندا! لا تقودينى إلى اليأس، أنت ترين الآن أنني أصبحت رجلًا مرة أخرى."

"مثل حريق شب في قش" أجابت وتابعت: "يخلق ضجة حوله ويختفي بأسرع مما اشتعل، أنت تعتقد أنه بإمكانك ترهيبي، ولكنك فقط تجعل من نفسك مثيرًا للسخرية، لو كنت الرجل الذي اعتقدت في البداية، الرجل الرصين، الذكي، لكنت أحببتك بصدق وتزوجتك، المرأة تريد رجلًا مرتفعًا، تنظر للأعلى لكي تراه، أما رجل مثلك، يضع طوعًا رقبته تحت أقدام امرأة، ليس سوى دمية ممتعة ترميها حالما تمل منها."

قلتُ بسخرية: "حاولي أن ترميني بعيدًا، فبعض الدمى خطرة"

صرخت، لمعت عيناها واشتعل خداها: "لا تتحداني!"

"إذا لم أستطع امتلاكك،" وواصلت بصوت مخنوق بالغضب: "فلن يحصل عليك أي رجل آخر."

أجابت باستهزاء: "أية لعبة هذه؟"

كانت شاحبة بغضب هذه اللحظة، أمسكت بمعطفي وأعادت مرة أخرى: "لا تتحداني، أنا لست امرأة قاسية، ولكنني لا أعرف ما إذا كنت سأصبح كذلك، وما إذا كان هناك أي حدود لما قد أفعله بك؟"

"ماذا يمكن أن تفعلي أشد وحشية من اتخاذه عشيقا وزوجا؟" قلتها وأنا

غير قادر على احتواء نفسي.

أجابت: "قد أجعلك عبدًا عنده، ألست أنت تحت سلطتي المطلقة؟ ألا أمتلك العقد؟ ولكن بطبيعة الحال سوف تستلذ بذلك لو قيدتك وقلت له افعل به ما تشاء"

صرخت بها: "هل أنت مجنونة يا امرأة؟"

"أنا عقلانية تمامًا، أنا أحذرك للمرة الأخيرة، لا تقاوم، إن المرء الذي يصل إلى هذا الحد يمكنه بسهولة أن يتجاوزه، أشعر بشيء أقرب للكراهية تجاهك، لذلك سوف أتلذذ حقيقة برؤيته يجلدك حتى الموت، ولكنني لا أزال أكبح جماح نفسي."

بالكاد تمالكتُ نفسي، وفي النهاية أمسكت بها من رسغها وأجبرتها على الانحناء أمامي.

"سيڤرين!" بكت والغضب والرعب يصبغان وجهها.

"ينبغي أن أقتلك لو تزوجتِه." هددتها والصوت الذي انسكب من حلقي انسكب جامدا أجش.

"أنت لي ولن أدعك تذهبي لأحد غيري، أحبك جدًا."

ومن ثم عصرتها بشدة، وبلا وعي سحبت الخنجر الذي كان لا يزال في حزامي.

نظرت ڤاندا إلي بهدوء وبعينين مبهمتين.

وقالت بصوت خافت: "هذه هي الطريقة التي أحبك بها، الآن أنت رجل وفي هذه اللحظة أعلم أنني لا زلت أحبك."

"ڤاندا!"

دموع الفرح انسكبت من عيني، انحنيتُ وأمطرتُ وجهها العزيز بالقبلات، ولكنها انفجرت فجأة بضحكة مجلجلة: "هل اكتفيت الآن من مثلك الأعلى؟ هل أنت راضٍ عني الآن؟"

تلعثمت: "ماذا؟ ألم تكوني جادة؟"

"أنا جادة جدًا." وتابعت ببهجة: "أنا أحبك، فقط أنت، وأنت أيها المجنون، الرجل الصغير، ألم تلاحظ أيها المغفل أن الأمر برمته كان مجرد استعراض وتمثيل؟ ألم تدرك أنه كان من الصعب علي جدًا أن أجلدك حينما كان في تلك اللحظة كل ما أردته هو أن آخذ وجهك بين يدي وأغطيه بالقبلات؟ ولكن هذا يكفي الآن، لقد لعبت دور المرأة القاسية بشكل أفضل مما توقعته، والآن أنا متأكدة أنك ستكون راضيًا عن زوجة صغيرة طيبة، ذكية وجميلة، يجب أن نعيش بعقلانية و..."

"ستتزوجينني!" بكيتُ ناضحا بالسعادة.

همست ڤاندا وهي تقبل يدي: "نعم سأتزوجك يا عزيزي، يا زوجي الحبيب."

أحطتها بذراعي وضممتها إلى صدري.

"أنت الآن لم تعد عبدي غريغور، بل سيڤرين العزيز الذي أحبه."

"وماذا عنه؟ ألا تحبينه؟"

"كيف يمكنك أن تتصور أنني أحب هذا البربري؟ لقد كنتَ أعمى، وكنت خائفة حقًا عليك."

"كنتُ على وشك قتل نفسي بسببك."

هتفت: "حقًا؟ آه ما زلت أرتعد لفكرة أنك كنت بالفعل في أرنو."

أجبتها بوداعة: "ولكنك أنت من أنقذني، كنتِ تهيمين فوق الماء، مبتسمة، وابتسامتك ردت لي روحي."

***

يتسرب إلي شعور غريب عندما أحملها بين ذراعي، وترتاح بهدوء على صدري، تدعني أقبلها وتبتسم. أشعر كمن استيقظ فجأة من هذيان محموم، أو كبحَّار نجا من حطام السفينة لبر الأمان بعد أن قضى ليالي طوالا وسط اشتباكات خطرة مع الأمواج.

***

قالت لي عندما تمنيت لها ليلة جيدة: "أكره فلورنسا هذه التي كنتَ فيها بائسا، أريد أن أغادر فورا، غدا، ستكون طيبا لتكتب لي بعض الرسائل، وفي خلال ذلك الوقت سوف أدفع لدعوات حفلة وداعي. هل يناسبك هذا؟"

"بالطبع يا عزيزتي الجميلة والرائعة."

***

في صباح اليوم التالي قرعتْ بابي وسألتني برفق كيف نمت، لم أكن سأصدق يومًا أنها على هذا القدر من الحنان، مضت أربع ساعات مُذ ذهبَت، ومر وقت طويل جدًا منذ أن أنهيت كتابة الرسائل، جالسٌ الآن في الشرفة، ناظرًا إلى الطريق ومنتظرًا عربتها أن تظهر. أنا قلق قليلًا بشأنها، والرب يعلم أنه ليس هناك أدنى سبب للشك والخوف، ولكن هذه المشاعر

موجودة، رابضة على صدري ولا يمكنني الفكاك منها، لاشك أنها معاناة الأيام الماضية والتي لا تزال تلقي بظلالها على نفسي.

***

لقد عادت، تشع بالرضا والسعادة.

"حسنا، هل كان كل شيء كما تريدين؟" سألتها مقبلا يدها برفق.

أجابت: "نعم يا عزيزي، نحن مغادران هذه الليلة، ساعدني في توضيب أمتعتي."

***

خلال المساء سألتني الذهاب إلى مكتب البريد وإرسال رسائلها بنفسي. أخذت العربة وعدتُ في غضون ساعة.

"السيدة تريد أن تراك" قالت لي الخادمة السوداء بابتسامة، حينما كنت أصعد السلالم الرخامية الواسعة.

"هل تواجد أي شخص هنا؟"

"لا." أجابت وهي رابضة على السلالم مثل قطة سوداء.

***

مررت ببطء عبر الرواق ووجدت نفسي واقفا أمام حجرة نومها.

لماذا يخفق قلبي هكذا؟ ألست سعيدا بكل معنى الكلمة؟

برفق فتحت الباب وجذبتُ الستائر، فاندا مستلقية على الأريكة ولا يبدو أنها لاحظتني، كم بدت جميلة في ثوبها الفضي! وكأنه صُب تمامًا على جسدها كاشفا عن ذراعيها وصدرها الفذ، كان شعرها مربوطًا بشريطة من المخمل الأسود، نار عظيمة تحترق في الموقد، المصباح المعلق يُلقي بوهج أحمر على المكان، وبدا كأن الغرفة بأكملها غارقة في الدم.

"فاندا!"

"أوه سيڤرين،" صرخت وقفزت وطوقتني بذراعيها، "لقد اشتقت إليك!"

ثم عادت وقعدت على الوسائد الباذخة وحاولت جذبي إليها، لكنني سقطتُ على ركبتي، وبرفق وضعت رأسي في حضنها.

"أتدري أنني أحبك هذا اليوم أكثر من أي وقت؟" تمتمت وهي تمسد شعري وتقبل عيني "أي عينين جميلتين تلك التي تمتلكها! لطالما كانتا أكثر شيء يجذبني إليك، ولكن اليوم أشعر أنني واقعة في سكرتهما، أنا مغمورة جدًا."

ثم مددت أطرافها المهيبة، حدقت بهدوء في وجهي من تحت أهدابها الحمراء وقالت: "وأنت... أنت بارد جدًا! أنت تضمني وكأنني كتلة من الخشب. انتظر لحظة، سوف أجعلك تحترق بالحب." ضغطت شفتيها بتراخ على شفتي وأردفت:

"أنا لم أعد جذابة بما فيه الكفاية لك؛ لا زلت تريد أن أعاملك بقسوة، لا شك أنني كنت طيبة جدًا اليوم، أتعلم ماذا سأفعل أيها الأحمق! أعتقد أنني يجب أن أجلدك."

"ولكن يا صغيرتي..."

"أريد ذلك."

"فاندا!!"

"تعال! دعني أربطك" وواصلت وهي تقفز بابتهاج في الغرفة: "أريد أن أراك غارقا في الحب، أتفهم ذلك؟ ها هي الحبال: أتساءل ما إذا كنت لا أزال قادرة على فعل ذلك!."

بدأت بتكبيل قدمي معا، وبعدها قيدت يدي خلف ظهري، وأخيرًا أحاطت جسدي بحبل مثل سجين.

قالت بحماس وبهجة: "إذن هل يمكنك أن تتحرك؟"

"لا"

"رائع."

ثم كونت أنشوطة بحبل سميك، رمتها على رأسي وجعلتها تنزلق حتى وركي، ثم شدت الحبل وكبلتني إلى عمود. رعدة غريبة سرت من خلالي.

تمتمت: "لدي شعور أنني على وشك أن أُعدم،"

قالت: "هذا لأنك ستُعاقب اليوم."

"إذن ارتدي فراءكِ أتوسل إليك."

"ينبغي أن أمنحك هذه المتعة."

جلبت الكازبايكا وارتدتها بابتسامة، ثم وقف أمامي وذراعاها متشابكتان على صدرها، تطلعت إلي بعينين نصف مغلقتين وسألتني: "أتذكر قصة ثور ديونيسيوس؟"

"أتذكرها لكن بشكل مبهم، لماذا؟"

"أحد رجال الحاشية الملكية اخترع وسيلة جديدة للتعذيب من أجل طاغية سرقوسة، كل رجل محكوم عليه بالإعدام يُوضع في جوف ثور برونزي، ثم يُدفع في فرن عظيم والنار تشتعل من تحته، وكان المقصود من ذلك أنه حينما يزداد المعدن حرارة يصرخ السجين وسط ألمه مقلدا خوار الثور. ديونيسيوس كشف عن اهتمام شديد بالاختراع، وقرر أن يجربه على الفور؛ لذلك دفع بالمخترع نفسه داخل الثور. إنها قصة ذات مغزى، كنتَ أنتَ من علمني الأنانية، الكبرياء والقسوة ولهذا وجب عليك أن تكون ضحيتي الأولى، أنا الآن أشعر بمتعة مكثفة بوجود إنسان يفكر ويشعر ويرغب تحت رحمتي المطلقة، رجل يتفوق علي جسديا وذهنيا وفوق كل هذا رجل يحبني. هل ما زلت تحبّني؟"

"حد الجنون!"

"جيد جدًا! أنت سوف تستمتع أكثر بما أنا على وشك القيام به."

سألتها: "ماذا بك؟ أنا لا أفهمك اليوم! هناك ألق جلي من القسوة في عينيك، وأنت جميلة بشكل غريب، تمامًا مثل فينوس في الفراء."

دون أنت تجيب وضعت ڤاندا ذراعها حول عنقي وقبلتني، وكنتُ مسكونا مرة أخرى بعاطفة عنيفة.

سألتها: "أين السوط؟" ضحكت ڤاندا وانسحبت إلى الوراء خطوة أو اثنتين.

"إذن أنت تصر حقًا على أن تُجلد؟" قالت وهي ترمي رأسها إلى الخلف بإيماءة متغطرسة.

"نعم."

وفجأة تحول وجه فاندا تمامًا، يشوبه الغضب، وبدت لي في تلك اللحظة بشعة جدًا.

"إذن اجلده!" صرخت بصوت عال.

وفي نفس اللحظة تراءى لي رأس اليوناني بشعره الأسود والأجعد من خلف ستائر السرير ذي الأعمدة الأربعة، كنتُ صامتا وتسمرت في مكاني.

كان هناك عنصر كوميدي فظيع في وضعي الحالي، وودت لو أضحك بصوت عال على نفسي، لقد كان وضعي فظيعا ومهينا بشكل ما، لقد تفوق على أي شيء كنت قد تخيلتُه.

نهض خصمي من السرير في حذاء ركوب الخيل، وبنطال ضيق أبيض وسترة قصيرة من المخمل، رعدة باردة سرت إلى عمودي الفقري حال رؤيتي لأطرافه القوية.

قال ملتفتا إلى فاندا: "أنت قاسية حقًا."

"متعطشة فقط للمتعة" أجابت بضراوة، وواصلت: "المتعة وحدها ما يعطي قيمة للوجود؛ كل من يعاني أو يعيش بحرمان يصافح الموت كصديق، ولكن كل من سلم نفسه للمتعة لا يتخلى عن الحياة بسهولة. إن الباحث عن المتعة يجب أن يأخذ الحياة بهزلية على طريقة العالم القديم، لا يجب عليه أن يتردد في الانغماس في المتعة على حساب الآخرين، بل عليه لا يشعر أبدًا بالشفقة، يجب أن يكون على استعداد لتسخير الآخرين إما لعربته أو لمحرائه كما لو كانوا مجرد بهائم، يجب عليه أن يختار عبيده من بين الرجال الذين يعيشون حياتهم بمتعة محضة كما يعيش هو، ويجب عليه أن يستخدمهم لأجل خدمته ومتعته دون أدنى ندم. لا يعنيه إذا أعجبهم ذلك أو شعروا بالخزي الشديد، يجب عليه دائمًا أن يحمل هذه الفكرة في رأسه: لو كنتُ أنا الذي تحت

سلطتهم لكانوا سيتصرفون بالطريقة نفسها، وسيتعين علي أن أدفع لمتعتهم من عرقي، من دمي وروحي أيضًا. هكذا كان العالم القديم، المتعة والقسوة، الحرية والعبودية دائمًا ما يسيران جنبًا إلى جنب، الرجال الذين يرغبون في العيش مثل آلهة الأولمب، يجب عليهم بالضرورة أن يمتلكوا عبيدا لرميهم إلى أحواض السمك، والمصارعون على أهبة الاستعداد لإشعال المعركة من أجلهم، من أجل وليمتهم، وبالتأكيد لن يمانعوا لو تناثرت دماء المقاتلين على أجسادهم."

أعادتني كلمات ڤاندا إلى صوابي وصرخت: "فكي وثاقي!"

أجابت ڤاندا: "ألست عبدي؟ ملكي؟ أتريد أن أجلب لك العقد؟"

هددتُ: "حلي وثاقي أو سوف..."

وجررت الحبل بقوة.

"هل يمكنه تحرير نفسه؟" سألت ڤاندا وتابعت: "لقد هدد بقتلي."

"لا تخافي!" قالها اليوناني وهو يتحقق من قيودي.

قلت: "سوف أصرخ طالبا النجدة."

" لا أحد يسمعك، ولا أحد بإمكانه منعي من الإساءة لأقدس مشاعرك ولعب هذه اللعبة التافهة معك." أجابت ڤاندا وهي تكرر عباراتي من الرسالة بتهكم شديد.

"والآن هل تعتقد أنني قاسية وشرسة، أم هل أنا على وشك أن أصبح مبتذلة؟ ماذا تقول؟ هل لا زلت تحبني أم إنك تكرهني وتحتقرني؟ ها هو السوط..."

وسلمته لليوناني الذي تقدم بحماس إلي.

"لا تلمسني!" قلتُ مرتجفا من الغضب وواصلت: "لن أسمح بذلك..."

"أنت تعترض لأنني لا أرتدي الفراء" أجاب اليوناني بابتسامة ساخرة، والتقط سترة السمور من السرير.

"كم تبدو ساحرًا!" هتفت فاندا وهي تقبله وتساعده على ارتداء فرائه.

سألها: "هل يمكنني حقًا جلده؟"

أجابت : "افعل معه ما تشاء."

"أيها الوحش!" صرختُ ثائرا تمامًا.

نظر إلي اليوناني بشراسة مثل نمر، تضخمت عضلاته حينما جذب ذراعه إلى الوراء، ضرب وهسهس السوط في الهواء، كنتُ مقيدا مثل مارسياس بينما كان أبولو يستعد لسلخه.

تجولت عيناي في الغرفة وبقيتا ثابتتين على السقف، حيث شمشون مستلقٍ عند أقدام دليلة، وعلى وشك أن يفقد بصره من قبل الفلسطينيين، وفي تلك اللحظة بدت لي اللوحة وكأنها رمز، الصورة الأبدية لعاطفة وشهوة الرجل للمرأة، وفكرت: كل واحد منا هو شمشون في نهاية المطاف، دائمًا ما تتم خيانتنا من قبل المرأة التي نحب، سواء كانت ترتدي عباءة من السمور أو ثوبا من الكتان.

قال اليوناني: "والآن شاهديني وأنا أروضه."

أظهر أسنانه واكتسب وجهه طلعة متعطش للدماء، والتي أخافتني بشدة حينما رأيته للمرة الأولى، وبدأ يضربني بلا رحمة، بمثل هذه القوة المخيفة كنت أترجف خلال كل ضربة، وبدأ جسدي بأكمله يرتعش من الألم، تدفقت

الدموع إلى وجنتي، وفي تلك الأثناء كانت ڤاندا مستلقية على الأريكة تسند رأسها إلى يديها وتشاهد بفضول شيطاني ومتعة خالصة.

شعور أن تتعرض للجلد من قبل خصمك الناجح أمام مرأى المرأة التي تعشق لا يوصف؛ كنت أموت من العار واليأس.

ما كان مهينا أكثر بغض النظر عن مدى فظاعة موقفي، هو أنني شعرت بنوع من المتعة البرية الشهوانية، حينما كنت أُجلد تحت سوط أبولو وڤينوسي القاسية تسخر مني.

ولكن أبولو كان يجلد مرة تلو أخرى، حتى أخرج مني كل شاعريتي، وفي النهاية أصر على أسناني بغضب عاجز، لعنت نفسي وأحلامي الجامحة، وفوق كل هذا المرأة والحب.

وفجأة رأيت بوضوح فظيع كيف قادت العاطفة العمياء والشهوة الرجل مُنذ زمن طويل - هولوفرينس وأغاممنون- إلى طريق مسدود، إلى شرك خيانة المرأة، إلى البؤس، والعبودية والموت.

وكما لو كنت أستيقظ من حلم طويل، كان الدم يندفق تحت السوط، زحفت مثل دودة قد تم سحقها، لكنه استمر في جلدي بلا رحمة، وهي استمرت في الضحك بلا رحمة كذلك.

في هذه الأثناء حزمَت أمتعتها وارتدت بسرعة فراء السفر. كانت لا تزال تضحك حينما نزلت إلى الطابق السفلي وهي متعلقةً بذراعه ثم صعدت العربة.

انطبق الصمت لحظة، وحبستُ أنفاسي لأستمع، سمعت صوت باب العربة يُغلق، الأحصنة تحركت، سمعت ضجيج العربة فترة قصيرة، ثم اختفى كل شيء، وحل الصمت مرة أخرى.

***

لوهلة فكرت في الانتقام، فكرت في قتله، لكنني كنت مربوطا بالعقد البغيض: لا شيء بإمكاني فعله سوى الحفاظ على شرفي وصر أسناني.

***

أول شيء شعرت به بعد كل هذا، أن أقسى كارثة في حياتي كان السعي وراء الحياة الشاقة، إلى تجربة الخطر والحرمان، كنت أريد أن أصبح جنديا وأذهب إلى آسيا أو الجزائر، لكن والدي كان كبيرا ومريضا محتاجا إلى أن أكون بجانبه؛ لذلك عدت ببساطة إلى المنزل، ولمدة سنتين ساعدته في حمل أعبائه. تعلمت كيفية إدارة ممتلكاتنا، وتعلمت شيئًا كان جديدا نوعا ما علي والذي أنعشني مثل شربة مياه عذبة، وهو العمل وأداء واجباتي.

ثم توفي والدي، وورثتُ تركته، لكن ذلك لم يغير شيئًا من طريقة حياتي، ارتديت حذاء والدي المصنوع من الجلد الأسباني، وتابعت العيش كما لو كان الرجل العجوز واقفا ورائي، متأملا من خلف أكتافي بعينيه الحكيمتين والكبيرتين.

في يوم من الأيام وصل صندوق مصحوب برسالة، لقد ميزت خط فاندا.

تحركت بفضول، فتحته وقرأت:

"سيدي المحترم،

الآن أكثر من ثلاث سنوات مرت منذ تلك الليلة في فلورنسا، يمكنني أن أعترف بأنني قد أحببتك بعمق، ولكنك كنت أنت من خنق مشاعري

بإخلاصه الرومانتيكي وجنون عاطفته، منذ تلك اللحظة التي أصبحت فيها عبدي، أدركت أنه من المستحيل أن تكون زوجي، ومع ذلك، وجدت أنه من المثير تحقيق مُثلك العليا في شخصي، بينما كنت أنا أمتع نفسي بسرور، ربما لأشفيك من ذلك.

وجدت الرجل القوي الذي شعرت أنني بحاجته، وكنت سعيدة معه كما يمكن لأي أحد أن يكون على كرة الصلصال الهزلية هذه، لكن سعادتي مثل كل الأشياء في العالم، فانية ولا تدوم. قبل سنة تقريبًا قُتِل في مبارزة، ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش في باريس مثل أسبازيا.

ماذا عنك؟ حياتك بالتأكيد لا تخلو من شعاع الشمس لو كنت قد تمكنت من السيطرة على خيالك الجامح، وكان لكل تلك الصفات التي جذبتني إليك في المقام الأول اليد العليا، أعني شفافية أفكارك، طيبة القلب، وقبل كل شيء رصانتك الأخلاقية.

آمل أن سوطي قد شفاك، هكذا هو العلاج قاس، جذري بالرغم من أنه أثبت فعاليته.

في ذكرى تلك الأيام وذكرى المرأة التي أحبتك بشغف، أنا أبعث إليك بالبورتريه الذي رسمه الجرماني المسكين.

فينوس في الفراء"

***

كان على أن ابتسم لحظتها، وحينما غرقت في أحلام اليقظة وقعت عيناي فجأة على المخلوقة الجميلة، كانت تقف أمامي وترتدي سترة الفراء والسوط في يدها. ابتسمت لذكرى المرأة التي أحببتها بشدة فيما مضى، لعباءة الفرو

التي طالما أبهجتني، للسوط، وأخيرًا ابتسمت لمعاناتي وقلت لنفسي: "العلاج كان قاسيًا، جذريًا؛ ولكن الشيء المهم هو أنني قد شفيت"

***

"وما المغزى من القصة؟" قلتُ لسيفرين حينما وضعت المخطوطة على الطاولة.

"أنني كنت أحمق!" هتف دون أن يستدير إلي، وبدا بأنه يشعر بالحرج "لوكنت قد جلدتها فقط!"

قلت له: "طريقة غريبة! ربما مع فتياتك الفلاحات..."

"أوه، لقد اعتدن على ذلك" أجاب بفارغ الصبر، وتابع: "ولكن تخيل التأثير على واحدة من نسائنا المرهفات، المنفعلات والهستيريات!"

"ولكن ماذا عن المغزى؟"

"المغزى هو أن المرأة تظل كما هي مثلما خلقتها الطبيعة ومثلما خلقت الرجل حتى الآن منجذبا إليها، هي عدوة الرجل، يمكن أن تكون عبدة له أو سيدة له، ولكنها أبدًا لن تكون رفيقته، هذا لا يكون إلا حينما تكون مساوية له في الحقوق التي يتمتع، بها وتكون متساوية معه في التعليم والعمل. في وقتنا الحاضر ليس لدينا خيار سوى أن نكون المطرقة أو السندان، كنت أحمق بما فيه الكفاية لجعل امرأة تستعبدني، هل تفهم؟ والعبرة من القصة هي التالي: من يسمح لنفسه أن يجلد يستحق الجلد، ولكن كما ترى، انسجمت الضربات معي، ارتفع الضباب الوردي عن الغارق في شهوانيته، ولا أحد

بإمكانه أبدًا أن يجعلني أصدق أن بغي بيناريس المقدسة[1] أو ديك أفلاطون[2] هي صورة إله."

1- مصطلح استخدمه شوبنهاور لوصف النساء

2- ديوجين رمى ديكا منتوفا في مدرسة أفلاطون وقال: "ها هو إنسان أفلاطون."

ذاكرة الطفولة وانعكاساتها على الرواية..

سواء كانت أميرة أو فتاة فلاحة، سواء كانت ترتدي فرو القاقم أو صوف الغنم، إنها دائمًا المرأة ذاتها.. ترتدي الفرو، تمسك بالسوط، تعامل الرجال كأنهم عبيد، وهي كلتاهما، من خلق عقلي، والمرأة السرماتيونية الحقيقية.

أعتقد أن كل إبداع فني يتطور بنفس الطريقة التي تطورت بها هذه المرأة السرماتيونية في خيالي، أولا، هناك الميول الفطرية المشتركة بيننا جميعا للقبض على معنى استعصى على معظم الفنانين الآخرين، ومن ثم تجربة الفنان الذاتية تتدخل لتعطيه كائنا حيا نموذجُه موجود بالفعل في خياله.

هذه الصورة تشغله، تغويه، تأسره؛ لأنها تتوافق مع ميوله الفطرية وتعكس طبيعته الاستثنائية، وبعد ذلك يقوم بتحويلها ليعطيها جسدا وروحا.

وأخيرًا، في الواقع الذي قد حوّله مسبقا إلى عمل فني، يواجه المشكلة التي هي مصدر لكل الصور اللاحقة، والطريق المعكوس الذي يؤدي من المشكلة عودة إلى الصورة هو ليس عملا فنيا.

عندما كنتُ صغيراً، أظهرتُ ميولاً للـ "قسوة" في القصص الخيالية، قراءة هذا النوع من القصص يبعث برعدة في كياني، وينتج شعورا شهوانيا، وقد كنت روحا شفوقة لا تستطيع حتى أذية ذبابة، أُفضّل أن أجلس في ركن منعزل ومظلم في بيت عمتي، ملّتهما أساطير القديسين. كنت ساقطا في حالة

من الانفعالة المحمومة حال قراءتي للعذابات التي عاناها الشهداء.

في عمر العاشرة كان لدي بالفعل مثلٌ أعلى للمرأة، تولعت بامرأة تربطها بوالدي قرابة بعيدة - لنسميها الكونتيسة زنوبيا - أجمل امرأة بين النساء وأكثرهن فسقا في المدينة.

لقد حدث ذلك في ظهيرة يوم الأحد. لن أنسى ذلك أبدًا. لقد أتيت للعب مع أطفال زوجة عمي - كما كنّا نسميها - وقد تُركنا وحدَنا مع الخادمة.

فجأة دخلت الكونتيسة الغرفة، متغطرسة ومتألقة في عباءة السمور الكبيرة، حيتنا وقبلتني - ودائمًا ما كان ذلك يجعلني أنتشي - ثم قالت: "تعال ليوبولد! أريدك أن تساعدني على خلع فرائي." لم تضطر لسؤالي مرتين، تبعتها إلى مخدعها، ونزعتُ الفراء الضخمة التي بالكاد كنت أستطيع حملها، وساعدتها على ارتداء سترة المخمل الخضراء الرائعة، والتي تتكون أطرافها من فراء السنجاب.

وبعد ذلك انحنيت لألبسها خفها المطرز بالذهب. عندما أحسست بأقدامها الصغيرة بين يديّ، نسيتُ نفسي وقبلتها بحرارة.

في البداية حدقت عمتي فيّ متفاجئة، ثم انفجرت ضاحكة، ومنحتني ركلة صغيرة.

حينما كانت تعد الشاي لنا، كنّا نلعب الغميضة.

لا أعلم أي شيطان دفعني للاختباء في غرفة عمتي خلف رف الملابس، سمعتُ جرس الباب، وبعد بضع لحظات دخلت عمتي غرفة النوم يتبعها شاب وسيم، أقفلتْ الباب دون النظر إليه وجذبت عشيقها بين ذراعيها.

لم أفهم ما الذي كانا يقولانه، ولا حتى ما الذي كانا يفعلانه، لكن

قلبي بدأ يضرب بقوة، لأنني واع تمامًا بوضعي الحالي، لو اكتشفا وجودي سيظنان أنني جاسوس. مأخوذا بالفزع أغمضتُ عيني وسددت أذني، كنت على وشك أن أفضح وجودي بالعطاس، وعندها فُتح الباب على مصراعيه واندفع زوج عمتي إلى الغرفة يصحبه اثنان من أصدقائه.

انصبغ وجهه باللون الأحمر وبدأ الشرر يتطاير من عينيه حال رؤيتها، وقف مترددا للحظة، متسائلا بلا شك أي العشيقين يضرب أولا، تنبأت زنوبيا بذلك، نهضَت بلا كلمة، تقدَمت إلى زوجها ولكمَتْه بقوة في أنفه. ترنّح، انسكب الدم من أنفه وفمه، لكن عمتي لم تقتنع بعد، التقطت السوط ولوحت به بتهديد لزوجها وأصدقائه مشيرة إلى الباب، كان السادة سعداء جدًا بالهروب، ولم يبق أحد إلا الشاب الصغير.

في تلك اللحظة، سقط رف الملابس الرديء أرضا، فصبت مدام زنوبيا كل حنقها علي: "إذن كنت تختبئ، أليس كذلك؟ يجب أن ألقنك درسا لتجسسك!"

حاولت عبثا تفسير سبب وجودي، لكنها بلمحة بصر قبضت بيدها شعري ورمتني على السجاد، ثم وضعت ركبتها على كتفي وبدأت تجلدني بقوة، شددت على أسناني لكنني لم أستطع منع الدموع أن تطفر من عيني.

ويجب أن أعترف. في تلك اللحظة عندما كنت أتلوى تحت ضربات عمتي القاسية، شعرتُ بمتعة حادة، لاشك أن زوجها تسمتع أكثر من مرة بإحساس مشابه، وسرعان ما عاد لغرفتها، ليس كمنتقم بل كعبد ذليل. كان هو من سقط أرضا عند قدمي المرأة الغادرة، وتوسل صفحها وغفرانها حينما قامت هي بدفعه بعيدًا بقدمها.

ثم أقفلا الباب. لم أكن خجلا، ولم أسد أذني، لكنني استمعت بتركيز عند

الب إما صعبة أو غيرة طفولية ومرة أخرى سمعت فرقعة السوط الذي تدوقته قبل دقيقة واحدة.

هذه الحادثة أصبحت منقوشة في روحي كأنها نقشت بحديد أحمر ملتهب، لم أفهم في تلك اللحظة كيف بإمكان هذه المرأة في الفروة الشهوانية أن تخون زوجها، وبعد ذلك تسيء معاملته! لكنني كرهت وأحببت في الوقت نفسه الكائنة التي بدت بفضل قوتها وجمالها الشيطاني مباح لها أن تدوس بوقاحة على عنق الإنسانية.

وبعد ذلك، مشاهد أخرى غريبة، صور أخرى، في فراء قاقم فخم، في فراء أرنب برجوازي، أو في صوف خروف ريفي، كلها تركت أثرًا جديدا علي، حتى أصبح في يوم من الأيام هذا النوع من النساء مسيطرا على تفكيري، وصار في خيالي نموذج البطلات الرسولات.

بعد ذلك بمدة طويلة تأملت المشكلة التي ألهمت رواية ڤينوس في الفراء.

أدركت أولا الألفة الغامضة بين القسوة والشهوة، ومن ثم العداوة الطبيعية والكره المتبادل بين الجنسين، والذي يتغلب عليه الحب مؤقتا، وليظهر مرة أخرى لاحقًا مع قوة جسدتها الطبيعة، محولة أحد الشريكين إلى مطرقة والآخر إلى سندان.

ساشر مازوخ

عَقدان لفون ساشر مازوخ

عقد بين السيدة فاني فون بيستور وليوبولد فون ساشر مازوخ:

يتعهد السيد ليوبولد فون ساشر مازوخ بأن يكون عبدًا للسيدة فون بيستور، ويلبي جميع رغباتها في مدة لا تتجاوز ستة أشهر.

وباسمها، السيدة فون بيستور لن تطلب أي شيء منه قد يهينه بأي شكل من الأشكال (كرجل أو كمواطن).

علاوة على ذلك، سوف تسمح له بست ساعات يوميا لأجل عمله الشخصي، ولن تنظر أبدًا رسائله وكتاباته.

في حالة الإساءة أو الإهمال أو الطعن في الذات السيادية، يمكن للسيدة (فاني فون بيستور) معاقبة عبدها (ليوبولد فون ساشر مازوخ) بأي وسيلة تعجبها.

باختصار، سوف يطيع التابع ذات السيادة بخنوع تام، وسوف يقبل أي إحسان من جانبها كهدية عزيزة، ولا يحق له المطالبة بحبها.

باسمها، تتعهد فاني فون بيستور بارتداء الفراء كلما كان ذلك ممكنا، وخصوصا عندما تعامله بقسوة.

[حُذِف لاحقًا] في نهاية الأشهر الستة، سوف تُعتبر هذه الفترة من الاستعباد من كلي الطرفين أنها لم تحدث، ولن يجعلا منها وهما جديا، كل شيء حدث سوف يُنسى، وستُسترجع علاقة الحب القديمة.

لا يجب أن تكون هذه الستة الأشهر متتابعة، ربما تكون عرضة للانقطاعات في البداية أو النهاية، وفقاً لرغبة صاحبة السيدة.

نحن الموقعين أدناه نؤكد هذا العقد.

فاني فون بيستور ليوبولد ساشر مازوخ

تبدأ صلاحيته في الثامن من ديسمبر 1869

عقد بين ڤاندا وساشر مازوخ:

عبدي،

الشروط التي تحتها أقبلك لتكون عبدي وأسمح لك أن تكون إلى جانبي هي ما يلي:

سوف تتنازل عن هويتك تمامًا.

سوف تخضع كليًا لإرادتي.

أنت في يدي أداة عمياء تنفذ جميع أوامري دون نقاش، وإذا حدث ونسيت أنك عبدي أو لم تُطِعني ولو بطريقة غير مباشرة، سيكون لي الحق في معاقبتك وتصحيحك كما يرضيني، دون أن تتجرأ حتى على الشكوى.

أي شيء سار وممتع أمنحك إياه لا يكون إلا منة مني ويجب أن تعترف به بامتنان.

سوف تكون تصرفاتي تجاهك مثالية بالرغم من أنه لا التزامات تجبرني على فعل ذلك.

لن تكون ابنًا ولا أخًا ولا صديقًا... لن تكون أكثر من مجرد عبد يزحف في التراب.

إن روحك وجسدك ينتميان إلي، حتى لو سبب هذا لك معاناة عظيمة،

سوف تسلم مشاعرك وعواطفك إلى سلطتي.

سوف أسمح لك بتذوق أعظم قسوة، وحتى لو قمتُ بتشويهك، يجب أن تتحمل ذلك دون تشكي، سوف تعمل عندي مثل عبد، بصرف النظر عن أنني منغمسة في الملذات وتركك للحرمان ووضعك تحت أقدامي.

سوف تُقبِّل القدم التي سحقتك دون تذمر، سوف يكون لي الحق في صرفك في أي وقت، ولكن لن يُسمح لك بمغادرتي رغما عني، ولو هربت، بموجب هذه الاتفاقية سيكون لي السلطة والحق في تعذيبك حتى الموت بواسطة أفظع الطرق التي تتصورها.

ليس لديك أي شيء باستثنائي، وأنا بالنسبة لك كل شيء، حياتك، مستقبلك، سعادتك، بؤسك، عذابك وبهجتك.

سوف تنفذ كلما أطلبه، سواء كان خيرًا أوشرًا، ولو سألتك ارتكاب جريمة، سوف تتحول إلى مجرم إرضاءً لرغبتي.

شرفك ينتمي إلي كما ينتمي دمك، عقلك ومقدرتك على العمل.

لو وجدت هيمنتي أمرًا لا يُطاق وأصبحت قيودك ثقيلة جدًا عليك، سوف تقتل نفسك مجبرًا؛ لأنني لن أرد عليك حريتك أبدًا.

"أتعهد أنا بشرفي أن أكون عبدًا للسيدة ڤاندا فون دوناجوف، بالطريقة ذاتها التي تأمر بها، وسوف أُخضع نفسي دون مقاومة لأي شيء يُملى علي."

د. ليوبولد فون ساشر مازوخ

ڤينوس في الفراء

"قراءة مازو خ أمر ضروري. وإنه ليس من الإنصاف في شيء أن لا نقرأ مازو خ في الوقت الذي يتحوّل فيه ساد إلى موضوع لكثير من الدراسات العميقة في النقد الأدبي وفي علم النفس. وهي دراسات تتجدّد به فيما هي تجدّده. وإنه ليس من الإنصاف في شيء أيضاً أن نعتبر مازو خ مجرّد عنصر يكمّل ساد، أو مجرّد حجّة ودليل على أن الساديّة يمكن أن تتحوّل إلى مازو خية . إن عبقريّة ساد وعبقرية مازو خ مختلفتان الاختلاف كلّه. وعالم كلّ واحد منهما لا صلة له بعالم غيره.

ولا صلة أيضاً بين الأفانين التي يستخدمها كلّ واحد منهما في كتابة الرواية....
إن مازو خ هو المعلّم والسيّد العارف بكيفيّات إستلهام الرغبة وأفانين التشويق. وهذه التقنية في الكتابة كانت وحدها كفيلة بأن جعلت منه كاتباً عظيماً عرف كيف يتسلّل إلى الأسطورة ويلحق به"

جيل دولوز